

جیمس کوک

الملاح الخالد

تأليف: أرمسترونج سبيري

ترجمة: هازم عاي فوده

مراجعة وتقديم: الدكتور زكي نجيب محمود

« معالم الطريق »
شخصیات و اُعداء غیرت مجری النارج
باشراف الدكتور ذکی نجیب محمود

(٨)

جئیس کوکے

الملاح الخالد

١٧٧٩ - ١٧٢٨

نشر هذا الكتاب بالاشتراك
مع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
القاهرة - نيويورك
ابريل سنة ١٩٦٣

جَيْشُ كَوَاكِبِ المسّاح الخالد

تأليف
أرمسترونج سپيري

مراجعة وتقديم
الدكتور زكي نجيب محمود

ترجمة
حازم علي فوده


مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة.

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق •

This is an authorized translation of CAPTAIN COOK
EXPLORES THE SOUTH SEAS by Armstrong Sperry.
Copyright 1955 by Armstrong Sperry. Published by
Random House, Inc.

المشركون في هذا الكتاب

المؤلف : ارمسترونج سبرى

كان منذ نشأته يهوى الرسم والتصوير ، ولم يشك يوما فى أن هذا سيكون طريقه فى الحياة ، فالتحق بمدرسة بيل للفنون ، ولكن اضطراره للخدمة فى الأسطول فى الحرب العالمية الأولى قطع عليه دراسته . وبعد عقد الهدنة ذهب الى نيويورك ليواصل دراسته وانضم الى جماعة دارسى الفنون ، فازداد نشاطه وحبه لفنه .

وقد كان اهتمامه بالأقاليم النائية من العالم سببا فى قيامه برحلات طويلة ، فطوف فى خلال سنتين بأرجاء المحيط الهادى طولاً وعرضاً ، وعاش مع أناس من قبائل مختلفة ، وعمل مستشارا فى علم الأجيال مع بعثة علمية فى البحار الجنوبية .

له كتب كثيرة يتبين فيها ميله القوي الى الرحلات البحرية والاستكشافات منها : « جون بول جونز ، البحار المحارب » « كما ألف كتاب رحلات كريستوفر كولمبس » وكتاب « كل شيء عن ٠٠ المنطقتان المتجمعتان » وهما كتابان نشرتهما هذه المؤسسة .

وقد قام برسم الصور لكثير من الكتب ، من بينها كتاب ألفه باسم « القلب الشجاع » ونشرته أيضا هذه المؤسسة ، ونال عنه جائزة نيويورك سنة ١٩٤١ ، بوصفه أعظم كتاب فى الأدب الأمريكى للأطفال ظهر فى السنة التى نشر فيها .

المترجم : حازم على فوده

تخرج فى كلية الآداب (قسم اللغة الانجليزية) جامعة عين شمس سنة ١٩٥٤ وخريج معهد الألسن سنة ١٩٥٤ .
حصل على دبلوم معهد التربية العالى بجامعة عين شمس سنة ١٩٥٥ . يعمل حاليا محررا بوكالة أنباء الشرق الأوسط،
ترجم مسرحيتى « الوارثة » و « الحمى الصفراء » وهما من المسرحيات التى نشرتها هذه المؤسسة .

المراجع وصاحب المقدمة : الدكتور زكى نجيب محمود

أستاذ المنطق ومناهج البحث بكلية الآداب بجامعة القاهرة .
وهو حاصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لندن .
مؤلف لعدد كبير من الكتب فى الفلسفة وفى النقد الأدبى . من أهم مؤلفاته فى الفلسفة « المنطق الوضعى » و « خرافة الميتافيزيقا » و « نحو فلسفة علمية » و « حياة الفكر فى العالم الجديد » الذى أصدرته هذه المؤسسة .

ومن مؤلفاته فى تاريخ الأدب ونقده « فنون الأدب » و « قصة الأدب فى العالم » . ترجم كتاب « المنطق » لجون ديوى ، وهو من الكتب التى أصدرتها المؤسسة كما أنه يشرف على سلسلة كتب « معالم الطريق » التى تنشرها هذه المؤسسة للتعريف بكبار الشخصيات والأحداث التى غيرت مجرى التاريخ .

نال جائزة الدولة التشجيعية لسنة ١٩٦٠ .

مصمم الغلاف : محمد سليمان التهامي

بكالوريوس فنون جميلة (قسم زخرفة) يعمل مصمم ديكور .
صمم عدة أغلفة لكتب المؤسسة .

محتويات الكتاب

صفحة

هذه السلسلة بقلم الدكتور زكى نجيب محمود	١
مقدمة بقلم الدكتور زكى نجيب محمود	٣
١ - أنشودة البحر	٩
٢ - صبي البقال الصغير	١٨
٣ - نقطة التحول	٢٩
٤ - بحار الملك	٤٣
٥ - المغامرة الكبرى	٦١
٦ - الملازم كوك	٧٣
٧ - طريق العودة الطويل	٩٤
٨ - القارة المفقودة	١١٤
٩ - الشاطئ البعيد	١٢٧

« معالم الطريق »

هذه السلسلة

بقلم

الدكتور زكى نجيب محمود

الرجال الأعلام ، والأحداث الجسام ، هى المعالم المضيئة ، التى يستهدها الرائي اذا ماكر ببصره راجعا ، ليرى كيف سارت الانسانية فى طريقها منذ فجرها حتى بلغت هذا الذى بلغته فى يومنا الراهن ، نعم ان تطور التاريخ قد كان مرهونا دائما بكبد الجماهير وكدها ، لكن طبائع الأمور تقتضى أن تتبلور تلك الجماهير الكادة الكادحة فى رجل ينطق بلسانها ويعبر عن وجدانها ، اذا ما كان الموقف موقف قول وتعبير ، ويضم فاعليتها ويجمع نشاطها تحت قيادته اذا ما كان الموقف موقف فاعلية ونشاط ، وهكذا يرى الرائي - اذا أرسل البصر الى الطريق التى سارت عليها الانسانية ابان تاريخها الطويل - يرى الرائي عندئذ أن ثمة معالم تحدد مراحل السير ، وهى معالم ان تكن تشمخ برؤوسها فوق سطح الأشخاص والحوادث ، الا أنها نابعة من الطبيعة نفسها التى يتألف منها هؤلاء الأشخاص والحوادث ، فكأنما هاتيك الأعلام هى رؤوس الموج فوق سطح البحر ، تعلو على محيطها المائى ، لا لأنها مختلفة عن ذلك المحيط ، بل لأن ذلك المحيط المائى نفسه هو الذى دفعها الى أعلى لتكون له الظاهر المرئى لمن وقف عند الشاطئ يرسل البصر .

ولقد أردنا بهذه السلسلة من الكتب أن نقدم الى شبابنا القارىء صورا موجزة لكنها قوية ناصعة ، لما نتخيره له من جسام الأحداث وأعلام الرجال الذين نسجوا بخيوطهم نسيج الحياة كما نحياها اليوم : فمن الرجال من كشف قارة ، ومنهم من ارتاد محيطا مجهولا ،

ومن الرجال من حرر بلاده ، ومنهم من خلص البشرية كلها من وباء فاتك ، أو من أنتج للبشرية كلها أثرا خالدا من علم أو فن ، وكذلك قل في كبار الأحداث التي كان الحدث الواحد منها بمثابة نقطة التحول في مجرى التاريخ كله : فما ظنك بما قد صنعه رجال (أو نساء) من أمثال الاسكندر الأكبر ، وجنكيز خان ، وجان دارك ، وماركو بولو ، ومارتن لوثر ، وليوناردو دافينشى ، وغاريبالدى ، وكولبس . ثم ما ظنك بأحداث من قبيل موقعة ووترلو ، وماجنا كارتا (أو العهد الأعظم) ، وكشف القطبين ، وصعود الهملايا ، والانتصار على جراثيم الحميات ؟ تلك كلها قمم تلخص جهود الانسان في صنع حضارته وثقافته .

ان الانسان الواحد العظيم ، والحدث الواحد الجسيم ، قد لا يكون واحدا كالذى نعرفه في سائر الآحاد عند العد والحساب ، لانه قد يعدل الألف والألفين ، وقد يعدل الملايين بصفاته التي استجمعت صفات جنسه كله ، أو بآثاره التي يخلفها من بعده فاذا هى ثابتة الجذور لا تزول ولا تحول ، ولا وسيلة الى أن يعرف القارئ أوزان الناس والحوادث ، ومتى ترجع كفتها ومتى تشيل الا أن نهىء له الفرصة فيلاقى هاتيك الحوادث وهؤلاء الناس لقاء مباشرا فى سلسلة الكتب التي تقدمها له : سلسلة « معالم الطريق » .

مقدمة

بقلم

الدكتور زكى نجيب محمود

ان قارئ هذا الكتاب ليقلب صفحاته وكأنما هو يقلب صفحات
القدر ، حين ينشر القدر على الناس ما هو مكنون فى ضميره ، ينشره
عليهم سطرا سطرا ، متمثلا فى حياة رجل واحد يختاره من بينهم
لحكمة عنده ، حتى اذا ما فرغ من املاء ما يريد أن يملئه ، كان قد
تكامل للناس - على يدى ذلك الرجل المختار - مرحلة من مراحل
الحضارة فى شوطها الطويل .

واذا لم يكن الأمر كذلك ، فكيف نفسر أن غلاما نشأ فى أسرة
تفلىح الأرض ، لم يكن قد رأى البحر أبدا فى حياته ، ولا ذاق طراوة
هوائه ولا ملح مياهه ، هو جيمس كوك ، يلح على أبيه المزارع الريفى
أن يخلى بينه وبين السفر الى احدى قرى الصيد على شاطئ البحر لأن
شيئا فى طبيعته يدفعه الى البحر دفعا ، ويعجب الوالد لشذوذ ولده
هذا دون سائر اخوته ، لكنه لا يجد أمام الحاح ولده الصغير مناصا من
القبول ، فيرحل الصبى ماشيا على قدميه حتى يصل الى قرية على
البحر ، ويشتغل صبيا معاونا لبقال هناك عاما كاملا ، يذوق خلاله
مرارة الحنظل على يدى ذلك الوحش الآدمى ، لكن الغلام يصبر على
الأذى ويصابر ، لأن العيش فى جيرة البحر هو مراده ، توطئة للعيش
على سطحه وبين موجه .

وما كاد القدر ينتهى من املاء ذلك السطر الأول من أسطر
قصته حتى يبدأ فى املاء السطر الثانى ، حين يفر الصبى من مخدومه

الوحشى حتى يقع فى أقرب مدينة بحرية على صانع سفن . ولا ينتهى لقاءهما الأول . الا والغلام واحد من زمرة المشتغلين عند ذلك الرجل ، لا بل ان الرجل ليحيطه بعطف أبوى فيسكنه داره كأنه ولد من أسرته . وهناك يقيم الغلام عاما ينتظارا لأول رحلة بحرية يقوم بها ، فماذا يفتح القدر أمامه فى تلك الدار ؟ انه يفتح أمامه الكتب والخرائط فى مكتبة الرجل الخاصة ، واذا بالدهشة تأخذ الفتى جيمس ، اذ يرى الخرائط والكتب تشير الى حقيقة عجيبة ؛ وهى أن مساحات شاسعة من البحر والبر لم تزل مستورة فى عالم المجهول ! ومتى كان ذلك ؟ فى القرن الثامن عشر !

وجاء أوان العمل ، بعد أن كان جيمس كوك قد انكب انكباً على دراسة أمور الملاحة فى مكتبة مخدومه ، وبعد أن اطلع على الخرائط التى رسمها راسموها فاذا هم يملأونها بفجوات يضعون فيها صوراً خيالية لعرائس البحر ووحوشه ، وقد زعم زاعم منهم أن فى القطب الجنوبى قارة ممتدة الأطراف يسكنها خمسون مليوناً من البشر ! أفيجوز أن يتخبط الانسان هذا التخبط كله عن أرجاء الأرض التى يسكنها ؟ أقول ان أوان العمل قد جاء بعد أن كان جيمس كوك قد اشتعل رغبة فى كشف المجهول ، فهل تعجب لهذا الشاب الصغير فى أول رحلة بحرية له على مركب الفحم الذى كان أول مركب يعتلى فيه ظهر الموج ، يبدأ كتابة مذكرات يسجل فيها كل هام مما يقع عليه بصره : يسجل ما يتعرض له البحارة من أمراض ويعلل له ، ويرسم الشواطيء التى يبحرون بحذاءها ، وهكذا .

فسرعان ما بات - على صغره - مرموقاً بامتيازهِ بين الزملاء حتى لقد صمم رب العمل على أن يسند اليه قيادة هـو أهل لها ، لكن الشاب كان قد أدار فى رأسه أمراً آخر ، وذلك هو أن يترك السفن التجارية ليلتحق بالأسطول البريطانى ، نعم انه يعلم أن مناصب

القيادة فى ذلك الأسطول موقوفة على أشراف القوم ، فأنى له بها وهو ابن ريفى فلاح ؟ وكذلك يعلم أن بحارة الأسطول - من غير المجندين له - كانوا يجمعون جميعا من الحانات والمواخير ، فيجيشون شذاذا أجلافا غلاط القلوب ، أفيكون واحدا من هؤلاء بعد أن فتح له الأسطول التجارى أبواب القيادة ؟ نعم ، ولم لا ؟ ان حرب السبعين على الأبواب ، وسيكون للأسطول الحربى شأنه ، ومتى ضيع الله عمل العاملين ؟!

هاهنا كتب القدر فى حياة الرجل - بل فى حياة الانسانية - سطرًا جديدًا بل أسطرًا ، لأن جيمس كوك ما كاد يلتحق بالأسطول الحربى بحارا ، حتى لمع وسطه ، أتصدق أن قائده لم يلبث أن ركن اليه هو فى رسم الخرائط للبقاع المجهولة التى يعترم شئ الحرب عليها ؟! لقد عبروا الأطلسى ابتغاء حرب فى كندا ، لكن ما حيلتهم ومنطقة القتال لا علم لهم بأنهارها ، وغاباتنا ، ولا بشاطئها أين يصلح وأين لا يصلح ، فلينتظروا اذن فى موضع ما حتى يفامر جيمس كوك مع حفنة من رجال ليعود اليهم بما يريدون ، وتنجح الحرب ، ويخاطب القائد جيمس كوك فى زهو به : أين تعلمت يا جيمس بحيث حصلت ما لم يحصله أحد من ضباط البحرية جميعا فى شئون الملاحة وفى دقة رسم الخرائط للبحر والبر على السواء ؟ فيجيبه الرجل جواب الوائق بنفسه : علمت نفسى بنفسى يا سيدى ! فيستحثة القائد أن يعلن قدراته والا أغمضت عنه الأعين ، ويعود جيمس الى القول الذى لا يستطيعه الا الأفذاذ : اننى يا سيدى أحسن العمل ولا أحسن الكلام ! وعندئذ يتطوع القائد بلغت أنظار السلاح البحرى الى هذا النابغة الذى جاءهم عرضا ، فلم تصبح المسألة مقصورة على رجل يرقى جزاء عمله وكفى ، بل ان المسألة الآن قد أصبحت مسألة الوطن كله الذى من واجبه أن يقدر أفذاذه العاملين .

على أن أول الغيث قطر ثم ينهمر ، فالى هنا كان الرجل تحت

امرة سواء ، فسواء هو الذى يضع الأهداف ثم يستعين فى تحقيقها بمهارة جيمس كوك ، فاذا ما سجل الرجل ملاحظات هامة عن الفلك ، أو اذا رسم خرائط هامة لبقاع لم تكن قد رسمت من قبل ، فما ذاك الا شئ على هامش الهدف الاساسى من رحلته ؛ وكان من بين ما سجله فى باب المشاهدات العلمية تقريره عن كسوف للشمس كان قد حدث ابان رحلته ، ورفع التقرير الى الجمعية الملكية فى لندن . حتى لقد تساءل أعضاء الجمعية العلماء : من ذا يكون الرجل ؟ ثم ما هو الا أن نشأ ظرف آخر ، وهو الاستعداد لملاحظة الكسوف الذى تنبأ به « هيلى » - وكان كوك قد عاد لتوه الى أرض الوطن - فالى من تتجه الأنظار اذا لم تتجه الى جيمس كوك ؟ فعين قائدا للبعثة العلمية ، ومن هنا بدأ القدر يخط صفحات لامعات ، فقد أخذ هذا الملاح يجبو المحيطات كاشفا عن أصقاع لم يكن للعالم المتحضر بها علم من قبل : جزر تاهيتى ، ونيوزيلنده ، واستراليا وغيرها ، ثم يعود الى بلده نجما ساطعا ، لكنه لم يكد يستقر على جنبه حتى خرج له من تحدها : اذا كنت قد جبت هذه الأصقاع كلها ، فكيف لم تعثر على القارة المزعومة فى القطب الجنوبى ؟ فتخرج الموقف وشد الرجل رحاله من جديد ليقطع دابر هذه الأسطورة ، فأعدت له سفينتان ، وراح يغامر بهما - وفى صحبته جماعة من العلماء فى مختلف الفروع - حتى عاد معه اليقين بأن وجود تلك القارة وهم من نسج الخيال .

لم يعد الملاح ملاحا وكفى ، بل انخرط فى سلك العلماء الكاشفين ، فعينته الجمعية الملكية فى لندن عضوا ، واستدعاه الملك ليخلع عليه أمارات التكريم ، ثم لم يلبث أن طلب اليه القيام بمغامرة جديدة لكشف جديد : والكشف هذه المرة منصب على ممر يكون فى الشمال الغربى لو وجد لاختصر الطريق بين أوروبا وآسيا اختصارا شديدا ، وغامر الرجل فى رحلة كانت هى آخر رحلاته ،

فبينما كان يقضى أشهر الشتاء فى جزر هاواى التى كشف عن وجودها ، لقي حتفه بضربة من الأهالى .

ألا إنه لرجل واحد ، لكنه قد أضاف اضافة جلية ، لولاها لكان من الجائز أن يمضى بعده زمن طويل ، وسكان الأرض لا يعلمون من أجزاء الأرض التى يسكنونها الا بعضا دون بعض .

وانا لنقدم الى الشباب القاريء هذه السيرة العظيمة ليروا فيها الى أى حد قد تبلغ عظمة الانسان الطموح – شاكرين نيابة عنهم للأستاذ حازم على فوده قيامه بنقل الكتاب الى العربية .



الفصل الأول

أتشودة البحر

فى صباح ذلك اليوم من شهر أغسطس سنة ١٧٤١ كانت الشمس الساطعة تبشر بحظ سعيد • فالقت بأشعتها الذهبية على السهول المتموجة فى يوركشاير وعلى الأغنام السمان التى ترعى فى الحقول • وكانت دافئة وكأنها نعيم السماء قد مس كتفى هذا الصبي وهو يسلك الطريق الحالى الذى يمتد الى غير نهاية بعيدا عن بلدة جريت آيتون •

فالحظ هذا الصبي جيدا أيها القارئ لأن جيمس كوك الصغير الذى يفوق طوله سننى عمره الثلاث عشرة ، والذى يحمل كل ما يملك فى حزمة تتأرجح على طرف عصا ، كان قد بدأ مغامرة كبيرة . وبالرغم من أنه سيسافر فى السنين القادمة الى أماكن على سطح الأرض لم يكن قد وصل إليها انسان من قبل فان هذه الرحلة الأولى التى ارتحلها فى شبابه كانت أعظم رحلاته شأنًا فقد رسمت طريق مستقبله .

وكانت ستيتشز Staithes وهى قرية للسماكة يقصد إليها جيمس ، تبعد عن جريت آيتون بمسيرة يوم كامل . قطع منها الصبي فعلا عشرة أميال . وكان عليه أن يسرع كى يصل الى مقصده قبل أن يرخى الليل سدوله . وفى قرية ستيتشز كان جيمس كوك ينوى أن يعمل لمدة ثلاث سنوات صبيا لبقال يدعى وليام سوندرسون .

وكان والد جيمس يسخر منه قائلا : « يقال ! تقف طوال اليوم وراء » البنك « لتبيع لفائف السكر وأكياس الدقيق ! أى حياة هذه لصبى يتقن حث الأرض وحصاد الحبوب ؟ قل لى . . . هيه ؟ »

ورد الصبى : « ولكن ستيتشز يا أبتاه تقع على البحر ! وأنا لم أر البحر فى حياتى ولا المركب » .

فرفع الرجل رأسه بعناد قائلا : « ولا أنا ، فشأنك شأنى فى هذا . كل هذه الضجة عن المراكب ! ان المحراث يكفينى . فلم لا يكفيك ؟ واخوتك جميعا قاعون بالبقاء معى ومساعدتى فى الحقول » .

ونظر الأخوة الى جيمس بشك كما تنظر أفراخ الدجاج الى البطة الصغيرة الوحيدة بينها وهى تنزل الى الماء . وسأل الأخ الأكبر :



بدأ جيمس كوك الصغير منامرة كبيرة •

« وما الذى تتوقع أن تتعلمه عن المراكب فى محل بقال ؟ »

فرد الصبى : « سوف أكون منها على مرمى حجر ، ولا تخف لأنى سأتعلم » .

ونظرت أمه الى المجموعة بسرعة ثم قالت محتجة : « أتركوا الصبى يفعل ما يريد . فمن يدري ؟ ربما كان حب البحر فى طبيعته » .

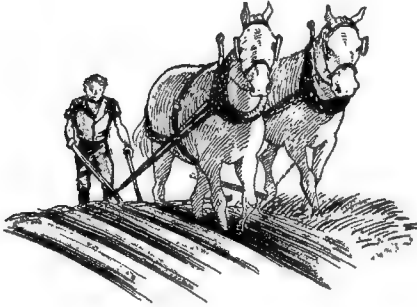
نعم قد يكون هذا أساس الموضوع . لأن أحد فروع أسرة الأم ، وهى أسرة جريس كوك - كانوا ملاحين (على عكس أسرة زوجها المزارع) .

وكثيرا ما كانت الأم فى أمسيات الشتاء تروى لابنها الصغير قصصا لا تذكرها جيدا عن البلاد البعيدة التى تقع فى أقاصى المحيطات . وكانت تتحدث عن الاسبانيين والاسكندنافيين وكثيرين غيرهم ، حتى عن أولئك الذين لم ينتموا الى أية دولة ، والذين كان الناس يتحدثون عنهم فى همس - وأعنى القراصنة ! وكان جيمس الصغير يرى كل هؤلاء فى مخيلته ، وبالرغم من أنه لم يسمع صوت البحر قط ، فان البحر كان قد بدأ يردد أنشودته الخالدة فى أذنه ، تماما كما يردد البحر طنينه فى محارة الأذن البيضاء الموضوعة على رف المدفأة ، وكان خاله جويليم قد أحضر تلك المحارة من أفريقيا .

وكان خاله يحذره قائلا : « اذا وضعت هذه المحارة على أذنك مرة واحدة وأصغيت اليها ، فلن ترضى عن حياتك على الأرض ثانية . وأنا أقولها لك ان البحر ليسرى فى دم الانسان كأنه الأنغام العنيفة الرائعة وانها لأنغام يافتأى اذا ما ملكت عليك الزمام فما أقساها

عندئذ من مالكة فلا تنصت لأنشودتها الا اذا كنت على استعداد لأن
تموت وصوتها يرن في أذنيك •

وأنصت جيمس • ربما كانت أمه على حق حين قالت ان « حب
البحر في طبيعته » وكل ما كان يعرفه هو أنه يريد أن يعيش مع
أنشودة البحر الى الأبد •



وبالرغم من أن أباه كان قد تدمر واحتج الا أنه كان يشعر في
قرارة نفسه أن ابنه هذا الذي كان يختلف عن أبنائه الآخرين لن
يقنع بحرث الأرض اذا كان ملح البحر يجري في عروقه كما كانت
زرقته تملأ عينيه • ولهذا فقد اضطر والده على مضغ أن يكتب
اسمه على الأوراق التي تسمح لجيمس بأن يصبح صبيا لوليام
سوندرسون البقال •

وكان الطريق الحالى يمتد بين سياج شجر العضلة متجها نحو مستقبل حر جميل مجهول . وكان الشيء الوحيد المؤكد هو أن جيمس كوك فى نهاية الطريق سيجد البحر ، واتسعت خطى الصبى تقطع أميالا من الطريق .

وتغير حذاؤه ، واتسخت جواربه ، وبلل العرق قميصه، وربط حزام سرواليه - وهما من غزل أسرته - وثبت العكاز فوق كتفه ، وبدأ يصفر بصوت عال حتى لقد أطل طائر من سياج الشجر لينصت اليه .

ومع أن الصبى كان ينظر بشغف الى الامام إلا أنه مرت بذهنه ذكرى ما قد خلف وراءه كأنها ظل سحابة عابرة ، فرأى الكوخ الحجرى ، الذى ولد فيه فى مارتون فى أكتوبر سنة ١٧٢٨ ، ورأى حقول جريت آيتون (القرية الصغيرة المجاورة) حيث عمل بجوار والده . وتذكر العانس العجوز السيدة ووكر مدرسة القرية ، أنها هى التى علمته القراءة ، وأولته اهتماما خاصا فى الجغرافيسا والرياضيات : العلمين اللذين أتقنهما جيمس ، ثم خفق قلبه لحظة ، حين فكر فى اخوته الذين التفوا حوله صبيحة ذلك اليوم كى يودعوه ، وفى قبضة يد والده الغليظة الصامته التى أضناها العمل ، وفى رقة والدته وهى تحتضنه وتهمس له « ليحفظك الله يا بنى ويعذك الى بيتك » . ترى متى يراهم ثانية ويسمع أصواتهم ! لقد انكتم الصفير الجرى فى حنجرة الصبى ، وجف فى حلقه الرقيق .

ولكن فى يوم كهذا ، وفى رحلة كهذه كان من المستحيل أن يظل جيمس مفتما لمدة طويلة . كانت السحب تتسابق عبر سماء انجلترا وكأنها سفن شراعية بيضاء تساير الريح ، ومن وقت لآخر كان المزارعون الذين يعملون فى حقولهم يتوقفون لينادوا بالتحية ،

وكانت الكلاب تنبح محذرة • والأولاد يحملقون فى صمت • وأخرج الصبى ربطة من جيبه بها خبز وجبن والتهمها ، ثم وقف بجوار جدول صغير كى يروى ظمأه ، وبدأ يفكر : أى نوع من الرجال سيكون مستخدمه الجديد وليام سوندرسون ؟ كان والد جيمس قد سمع عنه مصادفة ولكن أحدا فى جريت آيتون لم يعرفه • ولا شك أن الثلاث السنوات تعد فترة طويلة لا يسهل فيها العمل الا مع مستخدم طيب ! ترى هل سيكون الوقوف فى المحل وبيع الدقيق عملا سخيفا ، كما أصر على ذلك والده ؟ لم يستطع جيمس أن يجد اجابة عن كل هذه المسائل المحيرة ، فى حين كان يرقب الظلال تمتد مع مرور الوقت •

وبدأت ملامح السهل الموحش تتحول الى أرض أكثر صلابة ، وأكثر صخورا • وقلت القرى ، وتباعدت الأشجار ، وتمايلت أغصانها الى الداخل ، وكأن ريحا خفيفة تدفعها ••• وبينما اشرفت الشمس على المغيب بدأ التعب يدب فى جسد الصبى لأول مرة ، ولكنه أسرع فى خطاه ، فقد كانت ساعات العمل الطويلة فى الحقل قد أصلبت عوده النحيل ، وأما الجوع فكان مسألة أخرى ، اذ بدا له وكأنه لم يأكل منذ ساعات طوال ؟ وتوقع جيمس أن مستخدمه الجديد لن يتركه لينام بمعدة خالية •

وشعر الصبى أن الريح قد تجددت فاستنشقها بشغف لأن والدته كانت قد أخبرته أن الانسان يستطيع أن يشم رائحة الهواء المالح على بعد أميال • نعم مافى ذلك شك !! لقد أصبحت للهواء نكهة غريبة مختلفة ولم تكن فيها رائحة القش أو الغرين الحاملة المعهودة • انه هواء بارد عليل مليء بالحياة ، جعل الدم يسرى فى عروقه •

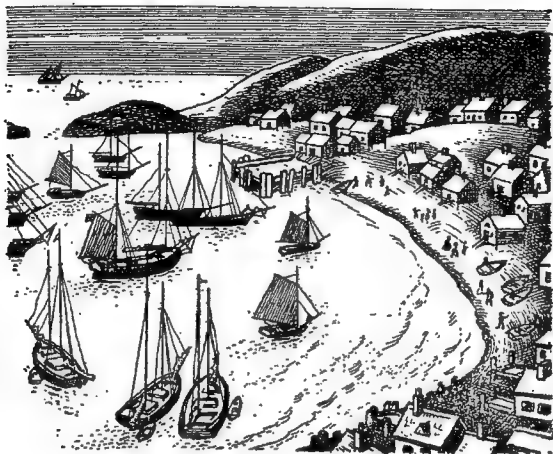
وفجأة سمع جيمس صوتا مروعا آتيا من بعيد ، لم يدرك كنهه ، ربما كان صوت بداية عاصفة . . . ولكن سماء الغروب الصافية الهادئة لم تنذر بعاصفة ، وزاد الصوت المزمجر وهز مشاعر الصبي ، ثم أدرك جيمس كوك آخر الأمر ، أن ما سمعه لم يكن قصف الرعد ، بل كان صوت البحر الصاخب !!

وانطلقت صرخة من شفثيه وهروول في خطاه وكأنه يكاد يجري وهو يتسلق آخر تل صخري أمامه ، ووقف على قمته فقابله الهواء المالح مندفعاً يحمل اليه هدير البحر . وفي أسفل ، وعلى بعد كبير ، رأى قرية « ستيتز » تحيط بها التلال الجرداء في كل مكان . ورأى شارعا واحدا مرصوفا يميل على طول الخليج محاطا بأكوخ حجرية متجاورة ، وكانت هناك مرافئ يضع فيها الصيادون أثقالهم من السمك ويعلقون فيها شباكهم لتجف .

ولكن البحر هو الذى استرعى انتباه الصبي وجذبه . فالى الشمال على مرمى البصر كان البحر يتلألأ في ضوء الشمس الغاربة حتى لقد ملك عليه مشاعره ، وكانت الأمواج تلتطم بالصخور فتتحول الى رذاذ ، وقد أخذت طيور النورس ذوات الظهور الرمادية تصيح وهى تحلق فى الهواء . ووقف جيمس كوك ساكنا لا يتحرك ، وشعر وكأن كل عروق بدنه قد جذبتها يد خفية فراحت ترسل النغم ، كما ترسل حبال السفينة أنغامها حين تهب عليها ريح مفاجئة ، وشعر برغبة فى الصياح والغناء ، ولكن لسانه كان صامتا ، لقد كان كل شئ غريبا ولكنه شعر وكأنه يعرفه منذ أمد .

وفى المرفأ رأى أسطولا من قوارب الصيد راسيا فى سكون
وبدأت الأنوار تسطع هنا ، وهناك ، ثم ظهرت أول نجمة تنلأ فى
خفوت ، وكان أمامه « مدق » متعرج ، متجه الى ستيثز فى أسفل التل
وعلى بعد ميلين ، وأخذ الصبى نفسا عميقا ، ثم سار الى حيث يقوده
هذا « المدق » . .

وهكذا وصل جيمس كوك أخيرا الى البحر بعد أن كان حتى
ذلك اليوم لا يبتعد عن بيته بأكثر من خمسة أميال .



الفصل الثاني

صبي البقال الصغير

حل الظلام في الوقت الذي وصل فيه الصبي الى اطراف ستيتز ، وكان شارع القرية المرصوف خاليا ، ولم يكن هناك صوت غير هزيم الأمواج المكتوم الذي يحمله هواء الليل ، ومما أعطى المكان مظهرا مظلما موحشا أن كانت جميع نوافذ الأكواخ مغلقة ، فوقف الصبي في حيرة في أى اتجاه يسير ؟

وفي تلك اللحظة دار حول ركن الشارع شخص في طريقه الى البحر - انه بحار وقف بفتة حتى لا يصطدم بجيمس .

وصاح الرجل : « على رسلك يا فتى ، ألا ترى أنه قد حان
الروح الى بيتك لتأوى سائر الليل ؟ »

فتلعثم الصبي قائلا : « آسف يا سيدى • ولكنى غريب عن
هذا المكان • »

— غريب •• آه •• وعن بيت من تبحث ؟

— بيت وليام سوندرسون ، البقال •

ففغر البحار فمه ، ونظر الى الصبي نظرة تعجب ، ثم قال :
انظر أيها الصبي ••• سر هكذا فى سميت الطريق مسافة مائتى
متر ، ثم عرج يسارا تلق أمامك لافتة معلقة ، ذلك هو دكان وليام
سوندرسون •

— شكرا لك يا سيدى •

فأجاب البحار : « لا داعى للشكر يا رفيقى • انما قل لى ••
ما هى الصلة التى بين ريفى مثلك وبين رجل مثل هذا ؟ »

وتلعثم الصبي قائلا : « ماذا تقصد يا سيدى ؟ »

فأجاب الرجل : « لا تنادنى بكلمة « سيدى » وكأننى وجيه من
أصحاب المناصب عند الملك ، أما عن وليام سوندرسون ذاك ، فلا بد
أن أقول لك أنه رجل عفيف وبخيل جدا ، فالكل يعرف عنه أنه
مستعد أن يسلمخ البرغوث ليأخذ جلده وشحمه !! »

فبلغ ريقه وقال : « لكنى سأعاونهُ صبيا له لفترة مداها ثلاث
سنوات • »

- يا للبلاء صبي آخر ! هه ؟ حسنا . على أية حال ليس هذا من شأنى لكن تنبه دائما الى وجهة الريح يا رفيقى . انه يبدو عليك أنك صبى بائس ، وليام سوندرسون هذا رجل صغير ومغرور . . . أراهنك جنيها للميم أنك تستطيع أن تعول نفسك . ربنا يحميك .

وعلى أثر هذا سار الغريب فى طريقه بمشية متأرجحة تاركا وراءه صبيا يائسا أحس فجأة بضيق حيلته . لأن ما قاله البحار ينطوى على تحذير . . . وتعجب جيمس : لماذا يطلب منه أن يعول نفسه ؟ أى رجل هذا الذى «يسلخ برغوثا من أجل جلده وشحمه !!» وماذا عنى البحار بقوله : « صبى آخر » . ولما سار الصبى فى طريقه شعر بتعب شديد فى ساقيه ، وبدا له بيته بعيدا بعيدا جدا ولكنه ما ان سار بضع خطوات حتى اكتشف لافتة تتأرجح مع الريح ، وسمع صوتها وكأنها تشكو من حديدها الصدئ . وقرأ عليها الكلمات التى تقرر مصيره : « وليام سوندرسون - بقال » .

وكان البيت نفسه مبنيًا من الحجر المعتم ، وأنعم الصبى النظر فيه باحثا عن أى شىء يدل على الحياة ، فلم يجد دخانا يتصاعد من المدخنة ، ووجد نافذة سوداء - لاتزال بدون مصراع - مفتوحة وكأنها عين لا ترى ، وبدا الباب الثقيل كثيبا كريها . ومرت لحظة شعر فيها الصبى برغبة فى نفسه أن يولى الأدبار ويعود من حيث جاء ولكنه رفع رأسه فى تصميم وعزم ، وقرع الباب بشدة محدثا صوتا مزعجا ، ثم تبع هذا سكون تام ، ووسط هذا السكون سمع جيمس دقات قلبه الخافتة .

وفتحت نافذة من النوافذ العليا ، أطل منها رجل يضع طاقة على رأسه ، ولكن ملامحه لم تكن واضحة فى الظلام ، وسأل الرجل بصوت أجش : « من هناك ، وماذا تريد ؟ » .



وما ان عاد بضع خطوات حتى اكتشف لافتة تتأرجح مع الريح .

وبدا جيمس يجيب قائلا : « سيدى ... » .

فقاطعه الرجل : « ليس هذا وقتا تقرر فيه الباب ، فالمحل مغلق طوال الليل » .

وحاول الصبى مرة ثانية أن يتكلم : « ولكنى ... » .

فصاح الرجل : « أغرب عن وجهى ! لو أن والدتك نسيت شراء كيس ملح فلست أنا مخطئا ، عد فى الصباح فى ساعة مناسبة » .

وعلا صوت الصبى فى استياء : « ولكنى لم آت لشراء ملح » .

« اذن فلو كنت سائلا ، فاذهب فى طريقك قبل أن أضربك بالعصا » .

واجتاح جيمس كوك نوبة غضب شديد ، لأن أحدا لم يخاطبه بهذه اللهجة فى حياته ، فاستقام فى وقفته ، ورفع رأسه واستعد لملاقاة أزمة شديدة ، ثم قال بصوت مرتفع :

« أنا جيمس كوك ، صبيك ، ولكنى يجب أن أقول بصراحة اننى كنت أتوقع مقابلة أكثر تهذيبا وذوقا ! » .

وأسكت هذا الهجوم العدائى وليام سوندرسون لفترة وجيزة ثم استجمع قواه وهاجم الصبى مرة أخرى :

« صبيى الجديد - هه ؟ لقد أخذت مدة طويلة كى تصل الى هنا - بلسان وقح - قف حيث أنت حتى أفتح الباب » .

ووقف جيمس الصغير في مكانه وهو لا يزال حائقا على هذا اللقاء ، وسرعان ما سمع وقع أقدام سريعة وخفيفة ، تتبعها صلصلة سلاسل في حين دفع الرجل الرتاج الى الخلف ، فانفتح الباب .

وقال الصوت المشاكس وكأنه صادر من العدم : « ادخل ، ادخل لا تقف هناك كالأبله . ان الريح عنيفة قاسية وليس لدينا وقود كاف » .

وخطا جيمس عتبة الباب بحذر ، وفي الحال أغلق الباب وراءه بعنف ، وانزلق الرتاج بسرعة في مكانه وواجه الصبي مستخدماً الجديد ، انه لم يتخيل في حياته انسانا أغرب من هذا الانسان ؛ لقد كان وليام سوندرسون رجلاً ضئيل الجسم ، خفيف الحركة ، كالثعلب . ومما زاد الشبه الكبير بينه وبين الثعلب ملامحه الحادة وشواربه الحشنة . وبدت عيناه في ضوء الشمعة التي كان يمسك بها في يده متقاربتين براقتين خضراوين ، وأمسك في يده الأخرى عصا وكأنها هراوة . وعلى الرغم من أن الرجل كان في الواقع أقصر بكثير من الصبي الذي كان يواجهه فانه كان هناك شيء في هذه العيون الثعلبية والأيدى المخلبية جعلها تبدو خطيرة جدا ، فقبض جيمس كوك يديه لا شعوريا ، كما لو كان يستعد لمواجهة تهديد حقيقي ، واستاء الصبي جدا حين أنعم الرجل النظر اليه بعينيه الخضراوين .

ثم تمتم وليام سوندرسون : « هممم صبيبي الجديد ، آه يجب أن تعتلد في وقفتك حين أتحدث يا صبيبي والا فلن تشعر الا بهذه العصا تهوى عليك » .

وتقدم جيمس رغم أنه كان في غاية الغضب ولكنه وجد أن مخاصمة مستخدمه في بداية خدمته لن تجدى .

وقال : « معى خطاب لك يا سيدى ، طلب منى والدى أن أعطيه لك فور وصولى » .

« هاته » .

وخطفت الأصابع الخفيفة الورقة المطوية من يد الصبى ورفع الرجل الشمعة فوثب معها ظلاهما على الحائط ، ثم بدأ وليام سوندرسون يقرأ الكلمات التى خطها والد جيمس بعد جهد :

سيدى المحترم :

يحمل هذا الخطاب ولدى جيمس ، وهو صبى متعلم مجتهد ، كما أنه يحمل معه موافقتى الكتابية على أن يعمل فى خدمتك ثلاث سنوات ، وانى أحملك تبعة رعايته ، وأذكرك بأن أيام الأحد من حق الكنيسة عليه ، وفى مقابل هذا سيخدمك جيمس باخلاص وصدق .
وانى دائما يا سيدى المحترم ،،،

جيمس كوك - الوالد

جدد وليام سوندرسون الخطاب وألقى به بعيدا وقال :
« يا ولدى العزيز . أعتقد أن ثقة والدك بك فى محلها » . ثم استشهد ساخرا ببعض كلمات والده : « متعلم ومجتهد ! ها ها ! سنرى » .

فنطق جيمس : « سأبذل جهدى يا سيدى » .

وأجاب الآخر بوقاحة : « هذا ما يجب أن يكون . . تعال معى لأريك المكان الذى تنام فيه » .

ودار الرجل متجها نحو سلم ضيق يقود الى أعلى فى الظلام ،
وخفق قلب جيمس وتأكد من أنه لن يتعشى ، ولكنه مع هذا تبع
مستخدمه باخلاص .

وانعكس خيال وليام سوندرسون فبدا وهو يصعد السلالم
وكأنه عنكبوت وحشى يصعد الى نسجه ، وشعر الصبى بالعجز وكأنه
ذبابة تتخبط فى هذا النسيج ، وسيطر عليه الذعر لحظة ، وخفق
قلبه وكأنه حمامة فى فتح .

وفى أعلى السلالم وجد بابا مغلقا ، ففتح الرجل الرتاج ودفع
الشعلة فى يد جيمس .

ثم قال بسرعة : « سريرك فى غرفة السطح ، يجب عليك أن
تستيقظ فى تمام الخامسة فتغلى العصيدة وتكنس المحل .. أسمعنى
يا صبى ؟ »

فأجاب جيمس :

« نعم يا سيدى » .

فهز الرجل عصاه وقال : « تذكر أننى لن أطيق الكسل ، أنت
هنا لتعمل ، وسوف تعمل ! »

وصعد جيمس ببطء سلما آخر حاد الانحدار ، وفى نهايته وجد
دعائم الغرفة منخفضة فوق رأسه . ووجد نافذة واحدة ذات زجاج
مستدير بسطت عليها أجيال وأجيال من العناكب نسجها ، وانطلقت
منها الفئران باحثة عن مأوى ، ومن مكان ما سمع الصبى صرخة
خفاش .

وكانت توجد على الأرض مرتبة محشوة بالقش ، وهى فى الحقيقة ليست سوى حصيرة قبيحة المنظر حتى فى نظر صبي متعب مرهق ، وخلع جيمس حذاءه ، وفك حزامه ، وأخرج لباس النوم من الحزمة التى معه ٠٠٠ وارتداه ، وارتعش حين أحس أنه مبلل ، ان أباه فى نفس هذا الوقت هناك فى بيته يقرأ صفحة من الانجيل بصوت عال ، وأمه تغسل « صبحون » العشاء ، وتحفظ الطعام المتبقى .

وصمم الصبى على تحويل تفكيره الى ما هو آمن وأفضل فاضط باأسنانه على شفته السفلى كى لا ترتعد ، ثم ركم بجوار المرتبة ، وحنى رأسه وصلى لله بكل عزيمته ، تماما كما تعود أن يفعل فى البيت :

« اللهم يا واسع الرحمات . اكبح لى جماح نفسى وأعنى على أداء عملى ، وبارك أحبائى ، ولين قلب أعدائى ، يا الهى ، آمين » .

وسمع الصبى صوت طقطقة الأمواج المستمرة بالمرافىء ، فى حين دوت الرياح مرعدة على الشاطئ ٠٠٠ فأطفا الشمعة ثم رقد بنفس مكتئبة ، ومعدة خالية ، لينام نوما قلقا متقطعا .

وبعد أن مضت السنون وكبر جيمس كوك ظل يذكر هذا المنظر دائما أكثر من أى منظر آخر كلما طاف بذهنه ذكر طفولته ولطالما تساءل : لماذا علق بذهنه هذا المنظر بالذات ، بوضوح ، بينما مرت به أحداث أخرى أحدث عهدا تشوبها الكتابة . ثم فهم جيمس أن السبب هو أنه فى تلك الليلة التى وجد فيها فى غرفة سطح وليام سوندرسون المظلمة المهجورة أعلق باب الطفولة خلفه الى الأبد، وانفتح أمامه طريق الرجولة الطويل المحير .

وتعلم جيمس كوك في الأسابيع والأشهر التالية أن مستقبل الصبي تحت امرة سيد مثل وليام سوندرسون ليس باهرا ؛ ففي الخامسة صباحا كانت العصا تطرق باب الغرفة مصحوبة بصرخة : « انهض أيها الكسلان المخدر !! انهض !! »

كنس الدكان وتنظيفه ، ومسح السلام ، وتناول الفطور في السابعة . هذا الفطور الذي قلما زاد عن شريحة خبز مدهونة بالعسل الأسود ، أو عصيدة خفيفة . وطوال ساعات النهار كان على الصبي أن يخدم الزبائن فيكيل السكر والدقيق ويزن الجبن والرنجة ، ويذهب في مهام لا معنى لها ، وبالرغم من أن جيمس كان يبذل قصارى جهده كى يقوم بكل هذه الواجبات العديدة على خير ما يستطيع الا أنه اكتشف بسرعة أنه لن يرضى مستخدمه أبدا ، وبدا له كأنما كل شيء مما كان يقوم به لم يكن صحيحا . وكثيرا ما كانت العصا تهوى على كتفه بضربات مؤلمة مبرحة .

وكثيرا ما كان وليام سوندرسون يقول : « ان الصبي الذي يسرق الوقت الذي يتناول عنه أجرا ما هو الا لص ، تماما مثل الصبي الذي يسرق قرشا من جيب سيده » .

وأشرف الرجل بنفسه على ألا يجد صبيه وقتا يمكن أن يسرقه ، حتى لو كان جيمس يميل الى هذا ، فلم يسمح له الا بفترة راحة قصيرة يتمتع بها في أيام الأحد . وحينئذ بعد عودته من الكنيسة ، كان دائما يجلس مع الصيادين الذين لا يعرفون يوما للراحة ، وسرعان ما قبلوا الصبي النحيل بينهم واعتبروه واحدا منهم ، ذلك الصبي الثاقب النظر ، والمعتمد على نفسه ، المتشوق الى سماع أقاصيصهم عن البحار العميقة . . . وكانت ذكريات هذه القصص عن البحار تعين الصبي على تحمل الأعمال الشاقة والاهانات المتكررة

طوال الأسبوع • فكان يعمل وكأنه فى غيبوبة ، يرى فى خياله شمس افريقية الحمراء ، وأشجار نخيل جزر الهند الخضراء ، وكان دائما يرى البحر ويسمع صوته ••• وعاش جيمس فى عالم من نسج خياله ولكنه كان بالنسبة له أكثر واقعية من العالم الكئيب الذى يعمل فيه مع مستخدمه ، ومن ضربه وإهاناته ، وحتى أحلامه التى كان يراها فى نومه كانت مليئة بالقارات المجهولة والجزر المرجانية التى لم تستكشف بعد وسط البحار المشمسمة •

وفى صبيحة أحد أيام سبتمبر الجميلة - بعد مضى سنة من وصول جيمس كوك الى بيت وليام سوندرسون - لم يكنس الدكان ، ولم تطه العصيدة ••• فثارت ثائرة وليام سوندرسون ، ودق باب غرفة السطح وصاح : « انزل هنا أيها التمثال المتسكع ! لابد وأن تعاقب بشدة على هذا !! انزل ! »

ولم يجب أحد ، لأن جيمس كوك كان قد هرب ، كما هرب من قبله جميع الصبية الذين عملوا فى خدمة نفس هذا السيد المستبد الجبار •



الفصل الثالث

نقطة التحول

وكان مرفأ هويتبي العريق يقع على ضفاف نهر اسك تحت سفح الجبال وعلى بعد حوالى تسعة أميال من ستيتز • وفى هذا الركن المحمى من ساحل يوركشاير توجد آثار للبريطانيين والرومانيين والسكسونيين والدنماركيين والنورمانيين • وكانت كنيسة سانت هيلدا تشرف على البلدة ، وفى ظلها وعلى طول الشوارع الضيقة تتصاعد بيوت الرعاة والتجار المبنية من الحجر « الطوب الأحمر » •

وفى تلك الأثناء كان مرفأ هويتبي منتعشا ناجحا ، فهنا تبنى السفن وتجهز ، وهنا تبدأ رحلاتها الى نهاية العالم المعروف الى هنا

تعود محملة بالعاج والتوابل وعظام الحيتان ، وأخيرا هنا ترسو السفن ، وميول قلاعها تشير كالاصبع الى أى فتى يريد المغامرات .

وكان جيمس كوك واحدا من هؤلاء ؛ ففي صباح ذلك اليوم قبل الفجر عبر المروج العالية ومرق من السهول الواطئة تاركا وراءه ستيثز (ووليام سوندرسون) ٠٠٠ لن يثب بعد اليوم لينفذ أوامر أحد ، ولن يذل لانسان يضربه ؛ فقد أصبح الآن سيد نفسه ، سواء أكان هذا الى أفضل أو الى أسوأ فإنه لن يعود ثانية .

وفى لحظة التردد نفسها التى يفكر فيها الصبى فيما سيعمل بعد ذلك جذبه طنين البحر ، كما قابلته أصوات الفرقة والطرق الصادرة من مصانع البراميل والحداة ، والطنين الصادر من نسيج الجبال ، وأثاره هذا أكثر مما أثارتة قرية صيادى الأسماك الهادئة - قرية ستيثز ، وربط جيمس حزامه وسار فى المدينة بثقة ونبات .

وعلى مسافة قريبة وجد مبنى طويلا على مرسى حجرى ، وعلى المبنى لافتة كتب عليها :

(جون وهنرى ووكر)

(تجار)

وبجوار المرسى وجسد سفينة راسية ذات قلاع مربعة ، وعلى مؤخرها كتب اسم (فريلوف) بأحرف من ذهب . وبالرغم من أن السفينة كانت قلزة بسبب شحنات الفحم التى كانت تحملها فى البحر الشمالى الا أن هيكلا كان نظيفا وكأنه كلب رمادى من كلاب الصيد ، تملؤها الكبرياء والجمال والقوة .

وعلى حيزوم المركب برز تمثال ملاك منحوت ٠٠ وشعر جيمس بقلبه يرقص بين أضلعه ٠٠٠ ولم يكن ليتخيل في تلك اللحظة الدور الذى سيلعبه هذا المركب فى مستقبله ، ولكنه كان يعرف فقط أن فريلوف هى مثال السفينة التى كان يحلم بها ، فدى بجرأة باب مؤسسة السادة ووكر ودخل .

ووجد جيمس رجلا ذا شعر أصفر جالسا أمام مائدة مبشر عليها خرائط وأجهزة بحرية ، ونظر اليه بعينين زرقاوين ملؤهما الطيبة والذكاء تتلألآن من وراء منظار ذى اطار معدنى مربع ، واستطاع الرجل بذكائه أن يتفهم معدن الصبى المتين ونظراته الثاقبة المستوية التى يمتاز بها أهل يوركشاير .

فسأله فى رفق : « ماذا عساك تريد يا عزيزى الصغير ؟ »

وتجراً جيمس حين سمع لهجة الرجل الودية ، فلقد اعتاد الاهانات من مستخدميه السابق لدرجة أنه نسى أن هناك رجالا طيبين فى العالم ، فقال :

« انى أحب أن أعمل عندكم صبيا يا سيدى » .

فأجاب الآخر :

« حقا ؟ ومن أين أتيت ؟ لهجتك تؤكد أنك لست من هويتبى ؟ »

فتردد جيمس وقال :

« انى قادم من جريت آيتون يا سيدى !! »

حملق جون ووكر :

« يالها من مسافة طويلة حقا !! متى تركت بلدك ، ولماذا ؟؟ »

فتنفس الصبى فى تردد ، لقد بدا له وكأن كل شىء ينوقف على اجابته وعلى فهم هذا الرجل ، ثم تدفقت اليه الكلمات فقال بسرعة :

« لقد تركت بلدى منذ عام وأكثر يا سيدى ، أرسلنى أبى لأعمل صبيا لوليام سوندرسون فى ستيتز ولكنى . . . ولكنى يا سيدى هربت منه ، ولن أعود اليه ثانية ! »

وتبع هذا فترة سكون خفق لها قلب جيمس وتفحص بشغف وجه الرجل الذى نظر اليه فى رقة ، وفى ذكاء أيضا .

ثم قال جون ووكر :

« آه ، سوندرسون ، انى لم أسمع قط كلمة طيبة عن ذلك الرجل . . . لقد مكثت معه يا بنى مدة أطول من أغلب الصبية الذين عملوا معه . . . ولكن خبرنى . . . هل تدرك مدى صعوبة الحياة على ظهر ناقلة فحم ؟ قد يكون بحر الشمال ألين بحار هذا العالم ، ليس فيه مكان لتكاسل أو متخاذل » .

فصاح الصبى : « انى لا أخاف العمل الشاق » وننى عضلاته كى يثبت ذلك « فأنا تقريبا فى قوة الرجال يا سيدى وعلى أتم استعداد للتعليم » .

فذكره جون ووكر قائلا : « ولكنه من الضرورى الاستئذان من والدك » .

فقال الصبى : « اذا أمرت يا سيدى ، سأبعث برسالة الى والدى اليوم توا . . . وكن واثقا من أنه سيوافق » .

فأجاب الرجل :

« ليكن هذا ، فأنا معجب بمظهرك يا جيمس كوك ٠٠٠ وبينما ننتظر رد والدك يمكنك أن تعمل هنا في الترسانة وتسكن في بيتي » .

وشعر جيمس براحة كبيرة وكان عبثاً ثقيلاً قد انزاح عنه ،
لقد تحدث إليه هذا الرجل حديث الند للند مقدماً له بيته ليسكن فيه ، فامتلاً قلب الصبي امتناناً وعرفاناً بالجميل .

وقال : « لن تندم على هذا يا سيدي ، فسأبذل قصارى جهدي كي أخدمك » .

فأجاب جون ووكر :

« لست أشك في هذا ، فأنني في العادة لا أخطئ في نظرتي الى الرجال ، أو الفتيان ٠٠ واني واثق من أنك رجل كامل ولست مجرد صبي » .

وتصافحا ، ثم كتب ووكر مذكرة وقال : « خذ هذه الورقة الى زوجتي ، سترعاك وتطعمك وتعطيك غرفة ٠٠ وليباركك الله يافتي » .

ان المصادفة وحدها هي التي قادت جيمس الى أبواب السادة جون وهنري ووكر ، وبإلها من مصادفة سعيدة حقاً ، لقد كانت هذه نقطة التحول في حياته .

وفي الوقت المناسب وصل من جريت آيتون الرد على رسالة الصبي ، لقد وافق جيمس كوك الأب على العمل الجديد ٠٠٠ وتحدث في خطابه عن رفاهية الأسرة وعن المحصولات والماشية ، ونصح ولده أن يكون ولداً طيباً وأن يتذكر صلواته في الليل ، وأن يخلص في

القيام بواجباته ، كما أعرب عن أمله في أن يجمع الله شمل الأسرة مرة ثانية تحت سقف بيتهم •

وفى الحال صعد جيمس الصغير الى ظهر فريلف يحمل معه جاجياته القليلة وبركات والده ودعواته ، وتملكه الفرح والزهو •••
لقد أصبح بحارا •

« انه ذاهب الى البحر !! »

وسنرى فى الأسابيع التالية كيف أن الصبى اكتشف أن الحياة على ظهر ناقلة فحم فى بحر الشمال (كما حذره جون ووكر) ليست سهلة ميسورة ••• نقلت فريلف شحنة من الفحم الانجليزى الصلب عبر المياه الساحلية العاصفة الى نيوكاسل ولندن • فكانت هناك أيام وليال تمر بهم مليئة ببؤس المرض ، وكان هناك الخوف الشديد الذى كان على جيمس أن يتغلب عليه ، كلما اعتلى القلاع المتأرجحة ، وكلما رقد على طرف الراجع كى يطوى الشراع • كما كانت هناك الحيرة فى حبال السفينة التى يجب أن تحفظ وأسماء الأشرعة الغريبة على سمعه ، كما كان هناك الضباط العتاة الذين يخيفون كل من تسول له نفسه العصيان أو التهرب •

هناك أيضا رفاق جيمس الغلاظ ، وهم رجال صلبتهم أعنف المدارس وأقواها ، فهنا فى غرفة البحارة كان الصبى ينمو ويتعلم أشياء جديدة فى كل ليلة يقضيها •

وعرف جيمس الصغير ، ما يعرفه شخص بالغ السذاجة يعمل فى الملاحة ؛ وهو أن الحياة فى الأسطول التجارى البريطانى أفضل بكثير من الحياة فى الأسطول الملكى ، كما أن سفن ووكر تفوق معظم

السفن الأخرى ٠٠ فرحلاتها قصيرة وأجور رجالها منتظمة ، ولكن بالرغم من هذه الاعتبارات كانت رحلات بحر الشمال قاسية على السفن والرجال ، على السواء ٠ فالرياح شاذة غير منتظمة ، والتيارات خائنة خداعة ، هذا الى جانب الضباب والأراضي الضحلة والشواطئ المحجوبة عن الريح ٠ كل هذه أخطار موجودة بصفة دائمة ٠٠٠ ولذلك كانت السفن التي لا يقودها ملاح ماهر حاذق لا تعمر طويلا ، وآمن جيمس بسرعة بأن الملاحة عبر المحيط لابد أن تكون مسألة بسيطة اذا ما قورنت بالدهاء المطلوب لمقابلة مخاطر الملاحة على مقربة من الشاطئ ٠

وكان برد الشتاء فى الجزر البريطانية ينخر فى عظام الرجال ، اما غرفة البحارة فى فريولوف فكانت دائما مغمورة بالماء ، كما كانت أسرتهم مبتلة باستمرار ، وطعامهم غير شهى ، وكثيرا ما كان الجليد يكسو الساريات والحبال ، كما كان البحارة يضطرون الى ضرب الشراع المتجمد بقبضات دامية كى يخضعوه ٠٠ فى مثل هذه الحالات كانت المهارة هى الثمن الوحيد للنجاة ٠٠٠ وهكذا بدأ جيمس يتعلم أسس الملاحة بأصعب الطرق الممكنة ، وأشقها ٠ وكان عليه أن يندكر جيدا ما يتعلمه لأن من ينسى كان يدفع حياته ثمنا للغلط ٠

وبالرغم من كل هذا لم يندم الصبى لحظة واحدة على قراره ؛ فقد كان عنده استعداد طبيعى للعمل فى البحر ، تماما كما كان عند والده استعداد للعمل فى الزراعة ، وكان يشعر بالفرح لقدرته على التغلب على الصعاب التى تواجهه كل يوم ، وسرعان ما نسى مخاوفه القديمة ٠ وأصبح دوار البحر من ذكريات الماضى ، وأصبحت المخاطر شيئا عاديا ، فكان يمتلىء بالطرب والدهشة كلما تغلب على قوى الريح والبحر ٠



ومنذ بدء الرحلة أخذ جيمس يحتفظ بسجل - سجل يدون فيه ما تمر به السفينة كل يوم ومدى استجابتها له ، ولم يدع شيئاً يفوته ، بل كان يدون في كتابه كل شيء يمر به في الرحلة الجديدة ، فيسجل الرياح والتيارات ، والسحب والطيور والأسماك .. وكان هذا الصبي الصغير يصنع أسس ملاحية نادرة المثال رغم أنه طبعاً لم يكن يدرك هذا في ذلك الوقت .

وعلم الصبي بأسف بالغ أن شركة ووكر ، قد استدعت « فريلوب » الى الميناء لتظل بها خلال أشهر الشتاء العاصية ؛ لكن ان يكن هناك مدعاة للأسف في ترك البحر ولو لمدة قصيرة الا أن الأسابيع القليلة التالية التي سيقضيها في ترسانة هويتبي ستثبت أهميتها بالنسبة اليه ، فقد وضعت قاعدة ناقلة فحم جديدة حمولتها ٦٠٠ طن ، واشترك جيمس كوك في بنائها وسميت : « الأشقاء الثلاثة » ، كما أن هذه الفترة التي قضاها في بيت أسرة ووكر اللطيف أنسته مشاق ومتاعب الحياة في البحر .

وسرعان ما أصبحت مسز ووكر أما ثانية لهذا الفتى الهادىء الجاد ، فاعتنت بطعامه ، وأصلحت نياحه ، فشعر جيمس لأول مرة بالوحدة التى كان يعيش فيها قبل ذاك . وكانت رفوف المكتبة مكتظة بالكتب عن المسائل البحرية فنزل الصبى الى الكتب كما تنزل البطة الى الماء ، وفى المساء بعد العشاء كان ينشر كتبه على مائدة الطعام ويبدأ فى دراسة مسائل الملاحة المعقدة فى ضوء الشمعة ، واستهوته الخرائط ، كما نفذ صبره حين رأى المساحات الشاسعة التى عليها علامة « مجهولة » . صحيح أن رسامى الخرائط استطاعوا أن يملأوا مثل هذه المساحات الشاسعة برسوم خيالية لعرائس البحر ، والدرافيل ، أو بصور عولى (اله البحر) وهو ينفث الرياح . ولكن كان هناك نوع من التحدى الظاهر فى هذه الأماكن المجهولة أثارت خيال الصبى وأدهشته . . . وأكد أكبر راسم خرائط فى الأسطول الملكى - ويدعى الكسندر دالريمبل - أن هناك قارة عظيمة فى القطب الجنوبى تحتوى على ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ نسمة . وتعجب جيمس كيف يمكن لدالريمبل أن يؤكد هذا ، على حين لم تكتشف بعد هذه القارة المزعومة ؟

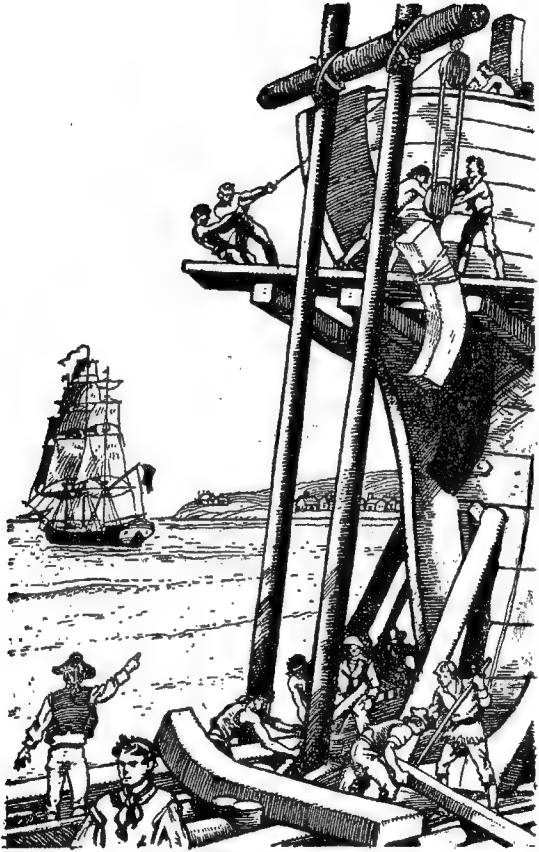
وزادت مهارة جيمس ومعرفته بالرياضة نتيجة لتوجيهات جون ووكر وتشجيعه ، ففهم الأرقام والرسوم الهندسية بسهولة ، وبدأ حساب المثلثات بالنسبة له أبسط من موضوعات الانشاء ، وتردد فى بادئ الأمر قبل أن يخوض فى علم الفلك ، ولكن سرعان ما أعجب به واندمج فى هذا العلم العتيق اندماجا كبيرا . . . وهكذا اعتنى مستر ووكر بالغذاء العقلى لجيمس ، كما اعتنت زوجته بحاجاته المادية .

وبالنهار قدمت له ترسانة السفن تسلية لا تنتهى منذ وضعت ركائز خشبية فى مزلقان السفن كى تكون مهذا « للأشقاء الثلاثة » وامتلأ الجو برنين أخشاب البلوط والصنوبر المنشور حديثا ، كما

دوت أصوات المطارق ، والحديد • وانتشرت نشارة الخشب كالضباب ، وتوهج لهب الحدادين فى البسواء ولكن جيمس كوك لم ينظر الى « الأشقاء الثلاثة » على أنها ناقلة فحم أخرى • بل كانت حديدا وأخشابا تخرج الى الحياة بأيدي صناع مهرة ، وكانت ضمن وظائفه المساعدة على تصميم شبكة حبال السفينة المعقدة ، وهى تجربة قيمة طبعت فى ذهن الصبى عمل كل جزء ثابت ومتحرك من حبال سفينة ذات أشرطة ثلاثة ••• وزادت هذه السفينة من اعتقاده بأن ناقلة فحم فى بحر الشمال هى أحب أنواع السفن الى قلبه ••• ولم يتحول لحظة عن هذا الاعتقاد •

وهكذا مرت سنوات تلمذة جيمس ، مرت سريعا مرور طيور البحر فى الضباب • وانقضت أربعة أشهر فى رحلات عنيفة ، تتبعها فصول شتاء قضاهها على الشاطئ فى ترسانات هويتبى •• ولم يعد جيمس كوك صبيا ، بل أصبح شابا طويل القامة ، عريض الأكتاف ، يبحر على ظهر السفن التى يساعد فى بنائها ، كما كان يصلح الحبل الذى يجده فى السفينة سواء أكان فى هيلكها أم قلاعها أم حبالها • وزادت معرفته بالملاحة وأصبح يعرف موانئ فرنسا وهولندا والنرويج والدانمارك • وأصبحت لابن الفلاح الذى جاء من جريت آيتون قدم ثابتة على الدرجة الأولى من سلم مرتفع •

ولكن كانت هناك روح جديدة فى الجو ؛ فقد كانت أوروبا تغل بالدسائس والمكائد • وكان فردريك الثانى فى ألمانيا متعطشا للسلطة ••• وذعرت فرنسا وروسيا وأيدتهما النمسا فى موقفهما ضد فردريك ، وكان الملك جورج الثانى ملك انجلترا الذى ولد فى ألمانيا يعطف عليها ، كما كان هناك عداة تقليدى بين فرنسا وانجلترا وكل حركة تضعف الأولى تقوى الثانية ••• وهكذا فاحت فى الجو رائحة حرب عظمى ، ولكن لم يعرف أحد متى تبدأ •



كانت السفينة تخرج الى الحياة بأيدى صناع مهرة .

وسمع جيمس كوك هذا الكلام فى نهر التيمز ، وكثيرا ما كان يشره المنظر الرائع لأسطول الملك الذى يسيطر على البحار سيطرة لا ينازعه فيها أحد . . . وفجأة بدا له نظام « روتين » الخدمة على ناقلات الفحم سخيلا تافها ، وبدأت تتبلور فكرة جديدة فى ذهنه .

وبعد ظهر ذلك اليوم أرسل جون ووكر فى طلبه ، وبدأ الرجل وكأنه يحمل اليه أنباء هامة سارة . . . فقد كان سلامه حارا وابتسامته رقيقة .

فاستفسر جيمس : « هل أرسلت فى طلبى يا سيدى ؟ »

وأجاب الآخر : نعم فعلت يا جيمس كوك ، لقد خدمتنى منذ البداية باخلاص وتفان وارتفعت وعظم شأنك بمجهوداتك الخاصة ومثابرتك . . انك بحار بحق يا بنى وأنا فخور بك » .

فدهش الشاب ، مما جعل جون ووكر يسرع فى اتمام حديثه : « هذا هو الوقت المناسب لترقيتك التى تستحقها ، ولذا قررت أن أسلمك قيادة « الصداقة » .

وكانت « الصداقة » أحدث وأحسن ناقلات الفحم التى يمتلكها ووكر ، وامتلأ قلبه فرحا ، ان مثل هذه الوظيفة تجعل منه ضابطا عظيما لسفينة عمل فيها وكيللا للقبطان مدة أكثر من عامين ، كما تعنى أنه أقتن مهنته وعمله كل هذه السنين التى خدم فيها فى البحر وفى الترسانات ، وهذا هو الاعتراف الصريح بذلك ، ونظر فى عيني صديقه القديم الزرقاوين البراقتين الأمينتين وشعر بالألم بسبب الرد الذى يجب أن يعطيه .

ثم قال فى ببطء : « انك تشرفنى بمثل هذا العطاء يا سيدى ، ولكنى عاجز عن التعبير عن أسفى الشديد ؛ اذ لابد أن أرفض » .
ولمعت جون ووكر كما لو أنه لم يسمع جيداً ، ثم قال : « ترفض ؟ هل جننت يا بنى ؟ هأنذا أقدم لك ما كنت تعمل من أجله طوال هذه السنين » .

فأجاب الآخر : « أعرف هذا ... ولكن انجلترا قد تدخل الحرب بين يوم وآخر وأرى من واجبى أن أقدم خدماتى للملك » .

. فصاح جون ووكر قائلاً : « ولكنه سيكون عليك أن تبدأ من أسفل الدرج مرة ثانية » . وإذا نشبت الحرب فلن تضطر الى العمل فى خدمة الملك ما دمت تعمل فى سفينة تجارية ... أضف الى هذا أن الأسطول الملكى أسطول متعاطف لا يصل الى مرتبة الضباط فيه الا أبناء السادة » .

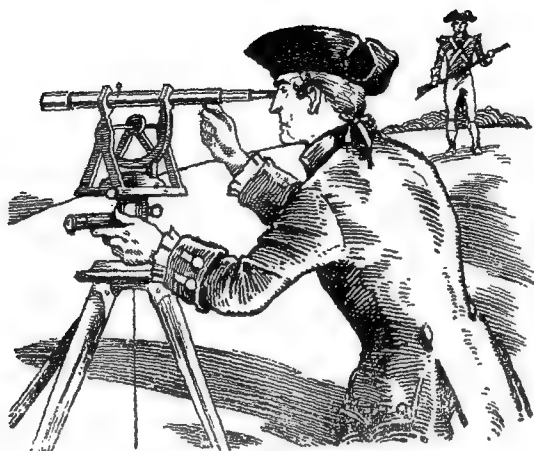
فابتسم جيمس كوك ابتسامة هادئة : « وما أنا الا ابن فلاح ليست له اتصالات أو صداقات كريمة ... ولكنك نسيت يا سيدى أنني أختلف عن أغلب السادة الذين يعملون فى خدمة الملك فى أننى أعرف السفن والملاحة ، وأنا مستعد أن أقوم بكل عمل فى السفينة ، وما دام المرء يستطيع أن يقود السفينة فماذا يهم اذن لو كان قد ولد فى كوخ حجري أو فى قلعة عظيمة ؟ »

فنهض جون ووكر وأمسك بيد الشاب ، وبدت على وجهه ابتسامة عطف كبير محت عنه خيبة الأمل :

« انى أرى أنك قد عقدت العزم ولم يحدث قط أن ائنيثت عن عزمك . فمن أنا اذن حتى أحاول ؟ وإذا وصلت الحرب الى هذه

الدولة المباركة فلن يكسبها لانجلترا الا رجال مثلك .. بارك الله
فيك ورعاك يا جيمس كوك ؟ »

وفي صباح اليوم التالى - السابع عشر من يونيو ١٧٥٥ -
وقع بحار قدير اثباتا لحضوره على ظهر السفينة الحربية « ايجلن » اى
النسر .



الفصل الرابع

بحار الملك

وبالرغم من أن الحرب لم تكن قد أعلنت بعد رسميا إلا أن إنجلترا ضربت حصارا حول ساحل فرنسا • وبمثل هذه الوسيلة أمل الملك جورج أن يمنع الامدادات من أن تصل إلى المستوطنين الفرنسيين في كندا ، حيث كان القتال بين المستعمرين الفرنسيين والمستعمرين الأمريكيين الانجليز قد بدأ منذ أكثر من سنة ؛ لأن هاتين الدولتين ستتشابكان أخيرا في العالم الجديد •

وكانت هذه هي فكرة وليام بيت حين أصبح رئيس وزراء إنجلترا ، لأنه كان يعتقد أن مستقبل بلده يكمن في ثروته من

الأراضي الخارجية ٠٠٠ وكان على بيت أن يمتلك كل أمريكا الشمالية وأن يطرد منها الفرنسيين والأسبانيين الى الأبد باسم التاج ٠٠ وكان حصار فرنسا هو أول مناوشة ٠

واشتركت سفينة جلالة الملك الحربية « ايجل » بقيادة الكابتن جوزيف هيمر مع مجموعة السفن المحاصرة ، أما جيمس كوك فقد أصبح فى مرتبة بحار عادى فى هذه السفينة ، لأن وصول رجل مثله من أصل فقير الى مكان مرموق أمر يحتاج الى صراع طويل لا يمكن التنبؤ بنتيجته ٠٠ ومع هذا فان من صفات كوك أنه اذا اتخذ قرارا لم يتراجع فيه قط ٠٠٠ وتحمس لفكرة العمل من أجل غايته ٠ فلقد أصبحت الفترة الطويلة التى قضاهها فى التعليم على ناقلة الفحم فى رحلاتها فى بحر الشمال كثيفة ودون مستواه بكثير ٠٠ ولو أنه عرف جيدا أنه قد خطا خطوة كبيرة ٠٠٠ وأشرق المستقبل امامه كما أُنذر بالخطر ٠

ولما كان من الصعب حث البحارين على تقييد أسمائهم فى الأسطول الملكى ، فقد أمسكوا بكثير من الرجال من كل نوع واضطروهم الى الالتحاق كرها بالخدمة ٠ وكان أغلب الرجال ممن لم ينزلوا قط الى البحر ، وممن ليست لهم مؤهلات لمثل هذه الحياة ٠٠ وخلت السجون من المذنبين والمجرمين الذين وعدوا بتخفيف عقوباتهم لو تطوعوا بالالتحاق بالخدمة ٠ كما قام رجال الملك بحملات على الحانات التى بالسواحل وسحبوا ضحاياهم طوعا أو كرها الى ظهر أحسن السفن الحربية ٠

ولم يختلف بحارة « ايجل » عن هؤلاء ، فامتلات غرفة البحارة بالنشالين والمتسولين ، والسفلة والأوغاد ، الذين قدموا من الأزقة والطرقات ، ولاح جيمس كوك وسط هذه الجماعة الأسفة كما يلوح

البرج وسط الضباب ، وسرعان ما اكتشف أن الكابتن هيمر وضباطه لا يعرفون عن الملاحه أكثر مما يعرف الجنود الجدد ٠٠ وكانت هذه هى الحال دائما ، فى الأسطول الملكى ؛ لأن ضباط القيادات كانوا يختارون من بين أبناء الأرستقراطيين الذين لا يعرفون الفرق بين « الملوية » والابرة المغناطيسية ٠ وعلى هذا فقد مدت جميع السفن الملكية بقائد الاقلاع ، وكان واجب هذا الفرد أن يرسم خط سير السفينة ، ويحسب موقعها فى البحر ، ويعطى الأوامر للبحارة بطى الشراع ونشره ، ثم يلى قائد الاقلاع مساعده ٠٠ وكان هذان الرجلان مسئولين عن إبحار السفينة ، ولم يكن الضباط يتولون السلطة فى السفينة الا أثناء المعارك وحتى فى هذه الفترة كان قائد الاقلاع ومساعداه يراقبانهم ٠

وسرعان ما لاحظ كابتن هيمر تفوق جيمس كوك على رفاقه ، فقد كان يختلف عن أغلب هؤلاء البحارة السوقة فى أنه عمل فى البحر من قبل ، وكان يفهم أسرار الملاحه وفن الاقلاع ، كما أنه يشك فى مدى معرفة هيمر نفسه لهذه الأعمال ٠٠ وعلى أى حال فقد وجد جيمس كوك نفسه يرتقى الى وظيفة مساعد قائد الاقلاع فى خلال ستة وثلاثين يوما من عمله على ظهر « أيجل » النسر ٠٠٠ ها هى ذى وظيفة كبيرة كالتي عرضها عليه جون ووكر ، فى حين حذره جون ووكر من أنه اذا انضم الى البحرية الملكية فسيضطر الى أن يبدأ من أول السلم ٠٠٠ ولو كان كوك يفخر بهذه الترقية السريعة فانه لم يدونها فى مذكراته التى كان يسجلها أثناء فترة راحته ٠٠٠ ربما لأنه قبلها بهدوء وثقة على أنها حقه الطبيعى ٠

وكانت الأوامر قد صدرت الى الكابتن هيمر بأن يحرس مساحة كبيرة من البحر مليئة بالعواصف وتمتد من لاندز اند الى أقصى الطرف الجنوبي من أيرلندا ٠٠٠ كما كان عليه أن يشتبك مع أية سفينة

فرنسية يراها ٠٠٠ ولكي تقوم « النسر » بهذا الواجب الضخم دخلت في عاصفة شديدة جدا وأصابها عطب شديد لدرجة أن هيمر فكر في أنه من الأفضل أن يعيدها الى بليموث لاصلاحها .

وتلكا هيمر في بليموث خلال أشهر الصيف الجميلة ، على حين كان جيمس كوك يغلى فى سكون لمثل هذا العجز ٠٠٠ وبدا له أن الكابتن هيمر لم يكن يتحمل عمل الحصار الخطير ٠٠ ولما وصل الى علم قواد السلاح البحرى خبر التأخر الذى لا داعى له أعفى قائد « النسر » من قيادته فورا ٠٠٠ وهذه احدى ضربات الحظ التى زينت حياة جيمس كوك ؛ لأن الرجل الذى حل محل هيمر الجبان هو سير هيو بوليزر .

وبوليزر نفسه رجل من رجالات يوركشير ، ومقدر له أن يصبح فى الوقت المناسب حاكم نيوفوندلاند وأحد قادة السلاح البحرى ٠٠ وعرف بوليزر لتوه الصفات النادرة التى تميز شخصية مساعد قائد الاقلاع الشاب .

ولهذا نرى أنه بالرغم من الاختلافات الأصلية الطبيعية التى ربما تحول بين بارون انجليزى وبين ابن فلاح الا أن الرجلين كونا بداية صداقة تستمر مدى الحياة ٠٠٠ وسنرى كيف أن سير هيو بوليزر هو الذى سيساعد جيمس كوك على الترقى من منصب الى آخر ، ومضت الشهور ٠٠ وفى مايو ١٧٥٦ تبلور الصراع بين انجلترا وفرنسا ، ذلك الصراع الذى ظلت تفوح رائحته قرونا عديدة ٠٠٠ وأعلنت رسميا حرب السبع السنوات ، وفى مدى سنة واحدة اشتهرت « النسر » حين فاجأت وهاجمت السفينة الفرنسية ذات المدافع الخمسين ، « دك داكيتين » ٠٠ وخرجت السفينة الانجليزية منتصرة من المعركة ، ولكنها تحطمت كلها تقريبا مما دعا جميع رجالها الى أن يعملوا بالمضخات كى يوصلها الى بليموث .

وفهم جيمس كوك أن حالة « النسر » هذه تقتضى أسابيع طويلة ، بل ربما أشهراً تقضيها فى اصلاحات فى الحوض الجاف فى الشاطئ ٠٠٠ ولم يكن هذا هدفه حين سجل اسمه فى البحرية الملكية ٠٠ وسرعان ما شعر بالملل حين فكر فى الخطوات التى ما زال عليه أن يصعد بها كى يصل الى هدفه ٠٠٠ ولكنه لابد أن يأتى اليوم الذى يرتدى فيه زى الضابط الملازم ، أو زى الضابط الأمر ، بل ربما ارتدى زى القبطان ولكن الوقت له أهمية عظيمة ، ودخل عامه الثانى وقرر أن يطلب نقله الى سفينة تعمل فى الميدان .

وبينما كانا يجلسان فى القمرة الخلفية « للنسر » والأبواب مغلقة كى تكتم صوت الطرق الذى يسببه بحارة المركب حملق سير هيو بوليزر فى وجه الشاب الذى كان يواجهه ، وفكر ٠٠٠ فقد أعجبه ما رأى : العينان المستويتان الصافيتان ٠٠٠ والأنف الشامخ ، والأذن المربعة ، والرأس الموضوع بجمال فوق رقبة قوية ٠٠٠ نعم ان جيمس كوك منال الرجل الذى يحوز الاعجاب ويوحى بالثقة .

وسأله بوليزر : « اذن فانت تريد أن تنقل ، أليس كذلك ؟ »

وكانت اجابة جيمس : « نعم يا سيدى . فان أى بحار أو حداد ماهر يستطيع أن يصلح « النسر » ولكن هذا يستغرق أشهراً عدة ، ولا تنس أن هناك حرباً قائمة وأحب أن أكون فيها يا سيدى ، أضف الى ذلك أننى على الشاطئ أشعر وكأننى سمكة خارج الماء .

وابتسم بوليزر ، وبالرغم من أن جيمس كوك لم يستغل صداقتهما قط ولم يتجرأ عليه ولم يتعد الحد القاطع الذى يفصل قبطان سفينة عن مساعد قائد الاقلاع . بالرغم من هذا فاننا نجد الرجلين متفاهمين معجبين أحدهما بالآخر . ورفع القبطان أحد حاجبيه فى تساؤل وقال : « ترى هل فكرت فى ترقية أخرى ؟ »

وبرقت عينا كوك وهو يقول : « لم أفكر فى غير هذا
يا سيدى » .

« هذا هو ما ظننته ... كم عمرك ؟ »

« تسع وعشرون يا سيدى » .

فرفع بوليزر نظره بسرعة ثم قال : « لست أكبر بكثير مما
أفكر فيه ... ما قولك لو أنى أوصيت بجعلك قائد الاقلاع فى
البمبروك ؟ » .

لو قيل هذا لشخص آخر غير جيمس كوك لدهش جدا ، لأن
البمبروك احدى السفن التسع عشرة التى يقودها الأدميرال
بوسكاوين والتى تستعد لمهاجمة الفرنسيين فى كندا ... وكان
تولى شاب فى الحلقة الثالثة من عمره وظيفة قائد الاقلاع فى سفينة
مثل هذه يعتبر نصرا كبيرا .

فقال كوك : « أحقا تعنى ما تقول يا سيدى ؟ » .

فعبس هيو بوليزر فى قسوة مصطنعة : « أنا لا أتكلم عبثا أيها
الشباب ... وأعدك لو صبرت قليلا بأننى سأوصى بترقيتك فورا ،
فأنت مستعد تماما لوظيفة قائد الاقلاع ، وفى الواقع أنك تستحقها
لجذك وكفايتك » .

ونهض الرجلان تملؤهما عاطفة صادقة .

وقال بوليزر ببطء : « ستفتقد « النسر » خدماتك ، كما
سأفتقدك أنا أيضا ولن يملأ مكانك أحد ... ولكن تأخر تقدمك
ورقيك ليس من العدل فى شىء فلقد وصلت فى خدمة الملك درجة
أعلى مما يتطلع اليه أغلب البحارة » .



• وهاجيت « النسر » السفينة الفرنسية « دك داكيتين » •

واحتج الآخر قائلا : « لقد كنت محظوظا للغاية ... محظوظا
اذ عرفت رجالا مثلك .. كيف أبهر لك عن شكرى وامتنانى
يا سيدى ؟ » وخرجت هذه الكلمات صادقة خالصة من عميق فؤاده .

فرد هيو بوليزر قائلا : « لا داعى لشكرى ، لأن لدى اعتقادا
أكيدا أن انجلترا نفسها هى التى ستشكرك . فالعالم ينتظر رجلا
يعرف ما يفعل ... أرجو لك التوفيق والحظ السعيد يا صديقى » .
وحيا كل منهما الآخر ، وابتسم له ابتسامة رقيقة ثم افترقا .

ورغم قلق جيمس كوك فقد سارت أمور الدولة ببطء شديد
وتناقل الحصار .. وأنجز هيو بوليزر وعده ، فتسلم كوك وظيفته
كقائد اقلاع فى سفينة بمبروك فى أكتوبر ١٧٥٧ ومع هذا مضى عام
كامل قبل أن يتجمع أسطول الأدميرال بوسكاوين فى ميناء بليموث
المزدحم .. لأن وليام بيت اضطر أن يرجئ خطبته الخاصة بضرب
المستعمرات الفرنسية فى كندا حتى يبني أسطول من السفن
الجديدة ، لأنه كان لابد من بقاء الحصار على فرنسا على حين تشن
الحرب فى أمريكا الشمالية .

وأخيرا حانت الساعة ، وكانت هذه لحظة مثيرة لجيمس كوك -
فمجرد فكرة رؤية العالم الجديد ملأت عليه خياله .. لأن أوربا قد
هرمت وأمست مجعدة ومتعبة ، ولكن تلك القارة الشاسعة عبر
المحيط - التى لم يعرف عنها الا القليل والتى لم تستغل مواردها
بعد - تعتبر غنية عظيمة ... والدولة التى تكسب هذه الغنية لابد
أن تصبح أقوى دولة على سطح الأرض .

وكان عليهم أن يعبروا الأطلنطى فى شهر فبراير رغم أنه وقت
سيئ للغاية فى القيام بهذه المهمة ... فأقلقت الزواجع والتيارات

المضادة الأسطول ، ومثلت جبال الثلج خطرا دائما عليه ، فتشتتت سفن الأسطول ، واضطر قائد الاقلاع الشاب في البمبروك الى استخدام كل ما يعرف من حيل الملاحة وفنها ، واستمر عبور الأطلنطى هذا أحد عشر أسبوعا رغم أنه كان يستغرق أسبوعين أو ثلاثة أسابيع فى الأحوال العادية •

ولكن ههنا كله كان أقل المحن التى واجهت جيمس كوك وأبسطها فلقد انتشر داء الأسقربوط الرهيب بين بحارة السفينة •• وبدأت الأسابيع الأحد عشر التى يقضيها البحارة فى البرد القارس دون أكل « طازج » ، أو ماء « طازج » ، بملابس مبللة ، وفراش لا يعرف الجفاف ، بدأت تظهر آثارها على البحارة •• وذعر قائد الاقلاع حين وجد بحارته يهوون واحدا تلو الآخر ، وانتفخت مفاصلهم وانقصمت عظامهم من أقل مجهود ، ودميت لثاتهم ، وتساقطت أسنانهم وسادهم ضعف شديد لدرجة أنهم لم يعودوا ينفذون أبسط الأوامر الا بصعوبة •

ها هى ذى مصيبة كبرى فداء الأسقربوط يستطيع أن يحطم سفينة ويقضى عليها تماما كما تحطمها زوبعة أو تقضى عليها الصخور.

ولكنها مشكلة فحصها جيمس كوك توا ؛ فقد كان هذا الموقف الفظيع بداية لأكبر عون قدمه للملاحة ، ألا وهو قهر الاسقربوط •

وسأل جيمس كوك نفسه : ما السر فى أن البحار العادى هو الذى يصاب بينما لا يصاب ضابط السفينة ؟ أىمكن أن يكون سبب مرض الاسقربوط هو أحوال معيشة البحارة داخل غرفهم ، لقد فهم كوك هذه الأحوال فهما جيدا ! ففى السفن التجارية حيث كانت الرحلات قصيرة والبحارة فى يسر كان المرض أقل انتشارا منه فى البحرية • أما فى البحرية الملكية فقد كان البحارة يعيشون على لحم

الخنزير المملح فى ماء قدر، أو على البسكويت الناشف الملىء بالسوس .
أما ماء النرب فقد كان بنى اللون ردىء الطعم موضوعا فى براميل
قذرة كريهة كما كانت هناك الديدان الموجودة فى غرفة البحارة التى
أحضرها المجرمون والشحاذون معهم فى خرقهم البالية ، أضف الى
ذلك عادة الجلد الوحشية التى كانت عقابا لأدنى اساءة يأتياها البحارة
... كل هذه أوهنت قوى البحار وجعلت منه فريسة سهلة
للمرض .

وعلى العكس من هذا نرى أن مائدة الضباط كانت دائما مكتظة
بلحم الخنزير ، وأنواع الجبن المختلفة ، ولحم البقر المدخن ، والبيض ،
وفطائر الفاكهة ، والخمور المعتقة ، ولم يكن مرض الاسقربوط يظهر
بين الضباط الا فى الرحلات الطويلة جدا حين تبدأ مؤنهم فى
الانتهاء .

نعم ، ما من شك فى أن أسباب مرض الاسقربوط هى سوء
التغذية والمعيشة القذرة ، وبدأت تتكون فكرة فى عقل جيمس كوك
الباطن ، ففى يوم من الأيام سيبدأ اجراء التجارب على حفظ الأطعمة :
الحضر والفاكهة ، لماذا لا يجفف الجزر والتفاح والبادلاء والفاصوليا
ويحفظ لمدة طويلة ؟ ان من المؤكد أن الرجال الأصحاء أكثر مقاومة
للمرض .

وبدأت هذه الفكرة الجديدة على رجال البحرية تنمو وتترعرع
فى أرض غنية . وفى أحد الأيام ستنبث وتزدهر .

وفى نفس الوقت ، مات تسعة وعشرون شخصا من البحارة
العاملين على ظهر « البمبروك » فى حين أصبح أكثر من ضعف هذا
العدد عاجزين عن القيام بواجباتهم ، وأخيرا رأى المراقبون أرض كندا

عن بعد ، كان لهذا العالم الجديد وقع جميل فى نفس قائد الاقلاع المتعب « جيمس كوك » وكأنها أرض الميعاد .

* * *

« وكان شتاء عام ١٧٥٩ أقصى شتاء عرفه المستعمرون فى أمريكا وفى الربيع وصل الأدميرال السير تشارلز سوندرز من إنجلترا لمساعدة الجنرال وولف على ارغام العدو على الاستسلام ، كان الجليد لا يزال موجودا فى مصب نهر سانت لورنس وفكر وولف فى خطة جريئة وهى ابحار الأسطول الانجليزى توا الى أعالى نهر كيوبك، وبهذا يفاجئ مونتكالم . لأن الفرنسيين كانوا واثقين أن جميع السفن كانت كبيرة جدا ومن الصعب عليها أن تتغلب على متاهات الصخور ، والجنادل التى فى سانت لورنس . ولم تكن هناك أية خرائط الا تلك التى يمتلكها الفرنسيون أنفسهم ، كما أنه من الواضح ضرورة مسح هذه المنطقة ومعرفة أماكن الغور فيها قبل أن يتحرك أسطول سوندرز للعمل فيها . ولكن مسح نهر خائن كهذا النهر (الذى تسيطر عليه مدفعية العدو) يحتاج الى شجاعة فائقة وأعصاب ثابتة ومهارة كبيرة فى فن رسم الخرائط الشاق . أين يوجد مثل هذا الرجل ؟ ان القلائل فقط من المدفعية البريطانية يستطيعون قراءة الخرائط فما بالك برسمها ؟

وأرسل تشارلز سوندرز توا فى طلب جيمس كوك ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى وقف فيها جيمس كوك أمام ذلك الرجل الشهير رغم أنه كثيرا ما سمع عنه ، وكان سوندرز قد طاف حول العالم وهو ملازم أول مع آنسون العظيم ، وانهارت عليه ألوان التكريم والتمجيد ، ولكنه لم يكن يتفاخر بهذا كما كان يفعل بقية الضباط . . وكان مصنوعا من نفس المادة الصلبة التى صنع منها

جيمس كوك ، ولهذا أحب كل منهما الآخر في الحال ، وشعر كوك بشيء من الاضطراب والتوتر مما جعله يحس أنه انما يقف مرة ثانية عند نقطة تحول هامة في حياته .

ودخل الأدميرال في الموضوع رأسا وقال : « انى سمعت عنك الكثير يا كوك من هيو بوليزر » .

بوليزر . . . صديقه القديم فابتسم جيمس كوك : « أعتقد يا سيدى أنك لم تسمع الا خيرا !! » .

فضحك الأدميرال ضحكة فائرة : « يمكنك أن تعتمد على هذا . . أخبرنى بوليزر ضمن مديحه - أنك تفهم فى المساحة وصناعة الخرائط » .

فتردد الآخر وهو يقول : « لقد درست المساحة ، ولكنى لا أزعم أنى أعرف الكثير يا سيدى » .

فصاح سوندرز : « أنقذنى ! حتى هذا القليل أكثر مما يعرف بقيننا . . . لقد حطم الفرنسيون جميع العوامات والعلامات التى فى النهر ، ولهذا يجب معرفة الأماكن الضحلة ويجب عمل الخرائط قبل أن يتحرك الأسطول الى كويبك . . ان هذا عملك يا كوك ، انه لعمل خطير جدا ، لا يمكن القيام به الا ليلا ، لأن الفرنسيين متحالفون مع الهنود . . . وضغط الرجل على قبضة يده ثم قال : « عد بتلك الخرائط مهما كلفك هذا من ثمن !! »

فضرب كوك عقبى حذائه وقال : « سأبذل جهدى يا سيدى » .

فاستراح الأدميرال ، وضحك ضحكا مكتوما : « أخبرنى بوليزر - لو أن ما أتذكر صحيح - أن بذل جهدك هذا كاف جدا . .

نسيت أن أسألك عن تدريبك ، لابد أن تكون من الدفعات الحديثة التي التحقت بالأكاديمية العلمية الملكية ، والا كنت أتذكرك ، أنت طبعا درست هناك » .

« كلا يا سيدى ، لم أفعل !! »

فرجع الأدميرال حاجبيه « حقا ؟ أين درست اذا ؟ »

ونظر جيمس كوك الى ضابطه الأعلى نظرة الئد . . . كان هناك فارق كبير بينهما فقائده من أسرة عريقة ، ذات غنى وذات أسلاف توارثوا تقاليد البحرية . . . ولكن كوك كان فخورا بنفسه يعرف حق قدره ، وهو يجيب : « انى أتعلم بنفسى يا سيدى منذ الثانية عشرة من سنى : » ودهش سوندرز وأطلق صفارة وصاح : « يا للسماء . . . شىء نادر لم أسمع فى حياتى عن شىء كهذا !! » . وبدا الإعجاب على وجهه وعلى ضغطة يده وهو يسلم على الشاب : « حسنا . حسنا ! أرجو لك كل نجاح يا كوك ، وتذكر أن مصير الفرقة بأكملها ومصير كل رجل فيها يتوقف على مدى نجاحك فى القيام بهذه المهمة .

« لن أنسى . . . ثق من هذا تماما ياسيدى » .

وترك جيمس كوك الأدميرال وخرج يمشى بخفة ، لقد كان يعرف أن معلوماته عن المساحة ليست كثيرة ، ولكنه شعر أنه لن يفشل ؛ فقد كانت هناك دائما قوة ما اسمها الحظ ، أو المصادفة ، سمها ما شئت ، ولكنها كانت تساعد على كل أزمة صادفها فى حياته ولكنه فهم لأول مرة أنه لم ينتظر الحظ قط ، بل كان دائما مستعدا حين تواتيه الفرصة ، وأقسم ألا يستريح حتى يتعلم أكبر كمية ممكنة من المساحة وعمل الخرائط . أما عن الخطر فالخطر عنده كاللحم والنبيد عند رجل يكاد يموت جوعا .

وشعر جيمس كوك بالحياة تسرى في كل جسمه ، من قمة رأسه الى أخمص قدمه • آه ، لقد كانت الحياة طيبة معه •

* * *

وعلى بعد حوالى عشرة أميال من كويبك كان نهر سانت لورنس يضيق ، وفى وسطه (فى الطرف الشرقى لجزيرة أورليانز) كانت توجد جزر صغيرة كثيرة خداعة مليئة بالصخور ، وفى هذه المنطقة كان مجرى النهر الذى يتبع الضفة الشمالية يعبر الى الجنوب ويمر فيما يسمى بالترافرس - مساحة خطيرة جدا من الماء وتواجه المعسكر الذى يتحصن فيه الجيش الفرنسى ، وكانت خطة سوندرز أن يبحر بأسطوله ومارا تحت نيران مدفعية العدو كى يقذفهم بقنابله ويغطفى تقدم جيش وولف •

ولهذا فقد كانت دقة جيمس كوك فى القيام بهذه المهمة فى غاية الأهمية ، لأنه اذا فشل تعرض الأسطول لخطر كبير ضاعت كندا من انجلترا الى الأبد •

وكان الرجل الطويل النحيل الذى وقف تلك الليلة المعتمة على حافة النهر يعطى تعليماته النهائية للجغرافيين الذين اختبروا معه ، كان هذا الرجل يدرك جيدا مدى الخطر الذى يواجهه والجزاء العظيم الذى ينتظره ، ومع هذا كان جيمس كوك ثابتا واثقا من نفسه وهو يتسلق مؤخرة القارب الصغير ، وأعطى أوامره بالرحيل •

لم يكن القمر ظاهرا ، ولكن النجوم كانت تتلألأ فى السماء المعتمة وكانت الغابات المظلمة تحيط بهم من جميع الجهات والنهر الغامض يهمس وهو يتحرك من مجهول الى مجهول • وبدأ العالم كله وكأنه يحبس أنفاسه لينصت •• وعلى مسافة قريبة بدت عينا

حيوان ليلى تشع منهما نار خضراء للحظة بسيطة ثم اختفت ، وضغط كوك شفتيه ٠٠٠ قد تكون هناك فى هذه اللحظة أعين أخرى هندية حادة تتبع كل حركة من حركاته - وحذر رجاله فى صوت خافت : « بثبات أيها الرجال ، أكتموا أصوات مساند المجاديف هذه ! ابقوا باليسار هناك - » .

وأمسك المجذاف المحرك بيدين ثابتتين وحملق أمامه ، وجاء صوت مكتوم من مكان ما فى وسط الغابة ، صوت دق طبول خافت - صوت أحس به أكثر مما سمعه يدق فى الأحشاء أكثر مما يدق فى الآذان ، وسمع كوك صوت تنفس الجدافين السريع ، ووسط هذا التوتر المتزايد بسبب الليل والخطر شعر بكل قدراته ومهارته تتجمع وتتركز وكأنها زنبرك صلب ، وجذب التيار المظلم القارب الصغير ودفع به الى وسط النهر ، وكانت هناك ثقالة من الرصاص مربوطة بخيط خفيف قوى وعليه علامات لقياس الأعماق ، وألقى كوك بالخيط من مؤخرة السفينة الى الماء وأخذ ينزله رويدا رويدا حتى وصلت الرصاصة الى القاع ، وقاس أعماق البحر فى أماكن مختلفة يبعد كل منها عن الآخر عشر ياردات ، وأخذ يلاحظ النجوم ويسجل مذكراته على أوراق لا يكاد يراها ، لم يفته شيء ولم يغب شيء عن عينه الحادة وذاكرته القوية .

ولم يره كشافة العدو الهنود الا فى الليلة الثالثة ، وفى تلك الليلة كان العمل قد أنجز لتوه فى اللحظة المناسبة ، وبينما كان رجال كوك يقودون قاربهم عائدين من حيث أتوا كانت مجموعة من الزوارق تنزل الى النهر قادمة من الشاطئ المظلم مليئة بالأهالى وهم يصيحون .

وصاح كوك : « أسرعوا أيها الرجال ، انهم يطاردوننا ! فأسرعوا حتى تنقذوا أنفسكم » .

وجدف الجدافون بكل قوتهم، وأسرع القارب الخفيف عبر التيار وبرقت المجاديف فى ضوء النجوم ، ونظر كوك الى الورا فوجد الزوارق تقترب منهم فحقق قلبه ، وسمع صيحات الهنود تعلو وتعلو وتجعله يضيق قبضته على المجداف ٠٠ وفى تلك اللحظة رنت فى أذنه كلمات الأدميرال وهو يقول : « عد بتلك الخرائط مهما كلفك هذا من تمن » .

فحث الجدافين قائلا : « أسرعوا يا رجال ! ما زالت أمامنا فرصة كى ننتصر عليهم ، اننا على وشك أن نصل الى الشاطئ » .

وبذل الرجال محاولة بطولية أخيرة ، وارتطم القارب بقاع النهر فوثب كوك ورجاله الى الشاطئ وهربوا تحت سستار الغابة المظلمة ٠٠ وسمعوا صوت الهنود يرسون زوارقهم ويطلقون صيحات وحشية ، ثم يمتطرونهم بوابل من أسهمهم .

وانطلق سهم مصوب الى كوك فمزق ستترته ثم استقر فى احدى الأشجار .

وكان الحظ حليف الرجال البيض فنجحوا فى الفرار من الأهالى المهاجمين نجاحا كأنما هو المعجزة ، ووصلوا الى المعسكر الذى فيه قيادة الجنرال وولف ٠٠٠ وأخرج جيمس كوك من جيبه سجلا للملاحظات وقياسات الأعماق التى دونها وكان السجل سليما جافا ملفوفا فى حرير مدهون بالشحم .

وبعد ذلك بأيام عديدة ، وضعت خرائطه بعد أن استكملت أمام القادة الانجليز ولم يكن أى من سوندرز أو وولف أو حتى كوك نفسه يظن أن العملية تمت بدقة متناهية ، أو أن خرائط كوك سيستعملها ملاحو الأجيال التالية فى نهر سانت لورنس .

أما بقية القصة فهي تاريخ ٠٠٠ فقد أبحرت أكثر من مائتي سفينة حربية من الأسطول الانجليزى ، عبر جنادل ترافرس الخطيرة دون أية اصابة وكانت المعركة التالية طويلة ودامية ، ولكن فى منتصف سبتمبر كان الجنرال وولف قد قطع سهول أبراهام وكانت مدينة كوبيك قد سقطت •

* * *

وأرسل السير تشارلز سوندرز فى طلب ضابط الملاحة ، وتلاشى الفارق فى الرتب بين الرجلين لفترة وجيزة ، فى حرارة تحية الأدميرال •

وقال سوندرز برزانة : « يجب أن تعرف أيها الشاب أن نجاحنا فى التغلب على الأعداء يعود الى مجهوداتك أنت ، لأنك قمت بعمل رائع فى مواجهة خطر عظيم يا كوك » •

وراوغ جيمس كوك ؛ لأنه لم يكن يغره الشناء بسهولة ، كما أنه كان يشعر أنه لم يقم الا بواجبه • فتمتم قائلا : « هناك أماكن فى التيمز يا سيدى فى خطورة سانت لورنس » •

فاستطرد الآخر قائلا : « ولكنها ليس بها هنود وفرنسيون يباغتونك ٠٠٠ أنت متواضع جدا يا عزيزى وهذا ليس من صالحك ، انتبه لما أقوله لك • اذا لم تتكلم وتعلن عما قمت به فلن تحصل على شكر السلاح البحرى » •

وأجاب الآخر متعثرا : « أخشى يا سيدى أن أكون خائبا فى التحدث عن نفسى » •

فقال الأدميرال : « اذن فسأتكلم أنا نيابة عنك ان الخدمة التى

أسديتها لانجلترا يجب أن يعرفها قادة السلاح البحري ٠٠٠ وأحب
أن أضيف أنها لن تضيرك فى شيء » •

« شكرا لك يا سيدى » •

« آه وهناك شيء آخر - ستعود المبروك الى انجلترا ، ولكن
هناك حاجة ماسة الى خدماتك كصانع خرائط هنا فى كندا ، ولهذا
فقد أمرت بتعيينك فى سفينة أمير الأسطول ، نور ثمبرلاند ، تحت
قيادة لورد كولفيل » •

وهذه ضربة حقة من ضربات الحظ ! لأن لورد كولفيل واحد من
أقوى الرجال فى الأسطول الملكى •

وتملك الفرح جيمس كوك لهذا الحظ السعيد ولم يستطع الا أن
يتمتم بامتثانه وشكره ثم ينصرف •



الفصل السادس

المغامرة الكبرى

وقف جيمس كوك في نافذة مسكنه في شادويل بالقرب من
جسر لندن ونشق رائحة نهر التيمز ٠٠٠ ما أجمل العودة الى لندن
بعد غياب أربعة أعوام في براري أمريكا •

لقد قدم طلبا لاعفائه من الخدمة في البحرية ، ولكنه كان لطول
المدة التي قضاه في البحر يشعر بالأرض تموج وتهتز تحت قدميه
وكأنها ظهر سفينة •

ودارت بخلد الشاب - لفترة قصيرة - جميع الأحداث التي مرت خلال السنوات التي كان فيها بعيدا عن إنجلترا . لقد سلم الفرنسيون مقاطعاتهم في كندا ٠٠٠ وكتب لورد كولفيل خطابا حماسيا للادميرالية (ادارة السلاح البحري) يحثهم فيه على سرعة نشر خرائط كوك الملاحية ٠٠٠ وادخر كوك في المدة التي قضاهها في الخدمة ثلاثمائة جنيه استرليني ، وهو مبلغ كبير - أرسل نصفه على الفور الى والديه المسنين في جريت آيتون ٠٠٠ وكان لديه من الأسباب ما يكفيه لكي يفخر بما حققه مساحا وصانع خرائط ، ولكنه مع هذا ابتعد عن النافذة في ملل ٠٠٠ ما قيمة العمل العظيم اذا لم يكن هناك شخص يشاركه فيه . ولما لم يكن قد حصل على براءة في البحرية فقد كان الضباط يقبلونه بمضض ، في حين كانت رتبته كقائد للاقلاع تحول بينه وبين البحارة العاديين ، ولذلك فقد شعر جيمس كوك بالوحدة بين رفاقه الا من صداقته ليهو بوليزر .

ودق الباب ، ربما كانت هذه صاحبة مسكنه مسن باتس المحبوبة التي كانت تسهر على راحته كأم رءوم .

فصاح قائلا : « ادخل » .

ولكن التي دخلت الغرفة لم تكن صاحبة البيت ، بل كانت ابنتها اليزابيث ، وخفق قلب الشاب حين رأى الفتاة الحجول ذات العينين السوداوين .

وقال : « لم أكن أتوقع أن تكوني أنت » .

فقالت الفتاة في هدوء : « ان والدتي تشعر بوعكة ، وطلبت مني أن أغير مفارش غرفتك . وأنظفها » .

وبالرغم من أن جيمس كوك كان قد واجه أخطارا كثيرة بثبات

وربطة جاش - الا أن هذه الفتاة النخيلة الرقيقة أربكته ، وجعلته يتلعثم وهو يقول : « انك فى غاية الكرم والعطف » .

ونظمت اليزابيت المناشف والمفارش فى صف أنيق ، ثم مرت بأصابعها على مجموعة من الكتب منسقة على المكتب ، وقالت وهى تفحص أحد أطراف أصابعها فى دهشة :

« ليس عليها غبار » .

فابتسم الرجل وفجأة شعر بالارتياح ، ثم أخبرها قائلاً : « قلما تكون لكبرى فرصة تجمع فيها الغبار ، فهى تستعمل دائماً » .

ونظرت الفتاة باعجاب وانعام الى صف الحرائط المثبتة على الحائط ثم سألته فى دهشة : « أهذا من صنعك أنت ؟ »

فطأطأ الآخر رأسه : « ستنشرها الأدميرالية (ادارة السلاح البحرى) قريباً » ولأول مرة شعر جيمس كوك بالفخر لما قام به وحده ، كما أن اعجاب اليزابيت الحار أثار فى نفسه شيئاً دفيناً بارداً ، وأذابه ذوبان الجليد فى فصل الربيع .

وصاحت الفتاة : « آه يا لعظمة أن تقوم بمثل هذه الأشياء !! لابد أننا جميعاً نبدو فى نظرك بلداء » خبرنى .. أحقا ما يقال عن أن تلك البرارى الكندية رائعة ؟ »

ولمعت أسنان الشاب البيضاء ، وامتلاً صوته بالتحمس وهو يقول : « انها لبلاد فسيحة تلك البلاد ! يمكنك أن تسمعى خوار الثيران حين تسقط أولى دفعات الجليد ، وتخرج الدبة فى وضوح النهار باحثة عن دواجن المستوطنين ، وتنمو الأشجار كثيفة جداً لدرجة أن كائناً من كان لا يستطيع رؤية السماء الا اذا هوت الفتوس

على الأشجار فاقتلعتها » • وسكت جيمس كوك ، وهو يلهث ...
لقد كانت هذه خطبة كبيرة بالنسبة له •

- « هل ستعود قريباً الى كندا ؟ » وبدا لسؤالها معنى أكبر
من الكلمات نفسها • أيمن أن يكون معناه أنها لا تريده أن يرحل ؟

فهب جيمس كوك رأسه ، ثم استدار نحو النافذة ولعت أمام
نظره خيالات بعيدة - ثم قال وكأنه يفكر بصوت مرتفع - : « مازالت
هناك أماكن أخرى كثيرة يجب أن تكتشف » •

وأجابت الفتاة فى أسى : « لقد سمعت أن بعض الرجال مثل
السفن التى يبحرون بها ، لا يرضون أبداً بالبقاء فى الوطن لمدة طويلة
بل يبحثون دائماً عن آفاق جديدة » •

فاعترف الآخر بقوله : « ربما كنت واحداً من هؤلاء ، ولكن
تذكرى أن كل سفينة لابد أن تعود الى مرساها النهائى مهما طالت
رحلتها » •

- « هذا صحيح ، ولكن كم يشعر بالوحدة والوحشة أولئك
الذين ينتظرون عودة السفن ! »

- « هذه حياة المرأة التى تتزوج بحاراً يا اليزابيث » •

وبدا اسمها وكأنه ينطلق من بين شفثيه طبيعياً • وهنا جاء
دور الفتاة فى الارتباك ، واحمرت وجنتاها ، وتمتمت : « يجب أن
أنصرف » •

ولما استدارت أمسك الرجل بيديها ، وشعر بالنفض الرقيق
فى عروقتها فاستجاب له نبضه • ثم رجاها قائلاً : « سوف أراك مرة



ثانية قريبا • أرجوك - « ولهت اليزابيث قائلة : « ربما ••• نعم !
نعم ، أكيدا ! » : ثم استلت يديها من يديه وأسرعت نحو الباب
المفتوح •

* * *

بعد مرور شهر ، فى السادس والعشرين من ديسمبر ١٧٦٢
دقت أجراس الأفراح فى كنيسة الأبرشية فى ليتل باركنج معلنة
زواج جيمس كوك ومحبوبته اليزابيث ، واشتريا بيتا فى طريق
مايل اند فى شرق لندن بحركتها وضوضائها ، وبدا أن أيام الملاحة
قد انتهت تماما من حياة الزوج الشاب •

ولكن هذه المسألة لم تستمر طويلا ؛ فقد عين صديقه القديم
السير هيو بوليزر ، حاكما لنيوفوندلاند ، ولابرادور ، وكان لابد

من رسم خريطة للمستعمرة غير المعروفة وسواحلها المغيطة بالضباب وطبعاً أرسل بوليز في طلب جيمس كوك .

وهكذا - بعد أربعة أشهر فقط على زواجه ، وجد الشاب نفسه يمشى مرة أخرى على ظهر مركب بينما جلست اليزابيث وحيدة في البيت تتعلم الصبر الذي تعرفه كل امرأة تتزوج بحاراً .

أما جيمس كوك فكانت لحبراته في نيوفوندلاند نتائج باهرة فقد حدث كسوف في الشمس بعد وصوله بمدة قصيرة . . . فكتب تقريراً مفصلاً عن هذه الظاهرة الطبيعية ورفعها الى الجمعية الملكية في لندن . . . ودون فيه ملاحظاته بمهارة فائقة لدرجة أنه بهر العلماء . وسألوا : من هو جيمس كوك هذا ؟ وما هي دراسته العلمية ؟ وزادت دهشتهم حين اكتشفوا الحقائق . . . كيف حدث أن مثل هذا الرجل - بعد أن قضى أحد عشر عاماً في البحرية الملكية - لم يحصل على براءة ضابط ؟ يجب عمل شيء حتى يحصل عليها ؟

ولكن البعثة في نيوفوندلاند استغرقت خمسة أعوام طوال ، وقارب جيمس كوك سنه الأربعين ، فرسخ في ذهنه اعتقاد بأنه لن يصبح ضابطاً . لأن البراءات لا تعطى الا لأبناء السادة النبلاء ذوى النفوذ ، لا لأبناء الفلاحين في انجلترا . ولأول مرة شعر بالمرارة وهو يفكر في أنه كان من الأصوب ألا يترك جريت آيتون . . . وشعر بأن نجمه الذي يجلب له الحظ بدأ يأفل ويختفي .

وقبل ذلك ببضع سنين كان هناك عالم فلكي انجليزي يدعى « هيلي » تنبأ بأن النجم المذنب الذي يحمل اسمه سيكون مرئياً في ١٧٥٩ . . . ودهش الجميع حين ظهر النجم فعلاً في موعده . وعلى هذا الأساس حين أكد « هيلي » أن كوكب الزهرة سيمر بين الأرض والشمس في ١٧٦٩ لم يشك أحد في هذه النبوءة . وإذا أمكن مراقبة

مرور الزهرة من أماكن مختلفة وعديدة بالكرة الأرضية في آن واحد فانه يمكن تقدير بعد الشمس عن الأرض بدقة ٠٠٠ وهذا يحل مشكلة الملاح الخاصه بقياس خطوط الطول وهي مشكلة كانت متعبة جدا حتى ذلك الوقت .

وأخيرا عاد جيمس كوك الى انجلترا في نوفمبر ١٧٦٧ ، وفي نفس هذا الشهر بدأت الجمعية الملكية توضع الخطط لمراقبة الكسوف الذي تنبأ « هيلي » بأنه سيحدث بعد ذلك بعامين . وكانت الخطة هي ارسال بعثتين الى بحار الجنوب وبعثتين الى أوروبا وبعثتين الى شمال كندا . واختارت الجمعية رجلا اسكتلنديا يدعى الكسندر دالريمبل كى يرأس البعثة الى المحيط الهادى . وهذا الرجل هو الذى كان يعتقد فى وجود قارة جنوبية عظيمة بها حوالى ٥٠٠.٠٠٠ نسمة .

وطلب من جيمس كوك أن يختار سفينة تصلح لمثل ذلك المشروع ، وكان مخلصا لجهه الأول ، فاختار احدى ناقلات الفحم التى بناها هويتبى فى بحار الشمال ، وهى سفينة قوية حمولتها ٣٧٠ طنا واسمها « الانديفور » . وكان كوك مستعدا لأن يضحي بأى شئ كي يبحر هذه البعثة ، ولكن كان دالريمبل أخا لأحد اللوردات بالاضافة الى كونه زميلا فى الجمعية الملكية .

غير أن الذى كان يزعم جيمس كوك هو أن ذلك الرجل لم يركب البحر قط رغم كونه بالطبع عالما محترما ، والواقع أن طرق الأدميرالية (ادارة السلاح البحرى) يصعب ادراكها .

وفى هذه اللحظة قام الكسندر دالريمبل بلعبة كانت من صالح جيمس كوك اذ لم يرض بكونه قائدا لبعثة علمية وانما طلب رتبة عسكرية أيضا فى البحرية الملكية . ولكن أقدم لورد فى

الأميرالية (السلاح البحرى) سير ادوارد هوك . ثار وغضب لأن «الانديفور» اشترت بأموال الشعب وامتلكتها البحرية ولذلك أعلن سير ادوارد أنه لن يقود شخص مدنى سفينة ملكية .

وأصر دالريمبل على موقفه . فاما أن يكون له كل شيء ، واما ألا يكون له شيء على الإطلاق وبدأت الحطة وكأنها ستنهار وكانت الجمعية الملكية فى حالة رعب شديد لأن مرور الزهراء لم يبق عليه الا سنة أو أكثر قليلا . من ذا الذى يستطيع أن يقود مثل هذه البعثة فى بحار الجنوب ؟ وفجأة تذكر أحد كبار العلماء تقرير جيمس كوك الرائع عن الكسوف فى نيوفونلاند .

هذا هو الرجل ! وهنا وثب سير هيو بوليزر فورا كى يظهر بطولة صديقه وكذلك فعل لورد كولفيل .

وهكذا تقرر الأمر ، وتساءل الجميع : لماذا لم يفكروا فى كوك فى بادئ الأمر ؟ اذ ليس بين جميع المحنكين فى البحرية شخص له مثل ما لجيمس كوك من تجارب ومعلومات .

وكانت هذه بالنسبة لجيمس كوك واليزابيث احدى المعجزات ، فكيف يتولى ابن فلاح من يوركشير - تخطوه مرارا فى الترقية - أعظم قيادة فى انجلترا وتذكر كوك أيام كده وكفاحه المريرة الطويلة التى قضاها كى يصل الى هذه اللحظة ولكنسه فى ساعة النصر كان متواضعا .

ولم تسمح اليزابيث لنفسها بالتفكير فى الأخطار التى كانت تنتظر زوجها ، لأنها لاحظت فرحته الكبرى حين تسلم براءته كملازم، ولا ينبغي أن تنطفىء هذه الفرحة أبدا كم كان أيقا فى هذا الزى العسكرى الجديد !!

وهمست قائلة : « كم أنا فخورة بك ، ولكنى سأكون فى غاية السعادة حين أعرف أن سفينتك عائدة فى طريقها الى الوطن » .

وحنى الرجل رأسه على رأسها وقال : « لا تخافى على يا عزيزتى اليزابيث ، فلا بد أنك تعرفين أنى ولدت سعيد الحظ ! »

— « وأنا ربطت نفسى بهذه السعادة يا زوجى » . وابتسمت بشجاعة وهى تدير رأسها بعيدا حتى لا يرى دموعها .

وعانقها الرجل برقة وقال : « أتريدى أن أبقي وأترك البعثة ؟ »

وخرجت اجابة اليزابيث بصوت خافت ولكنه صوت الواثق من نفسه : « كلا ولو أعطيت العالم كله ؟ فليترك الله يا أعز من لى وليعدك الى سالما » .

* * *

وكانت السفينة «الانديفور» راسية فى ديفورد فى نهر التيمز ، ولم تكن تشبه سفن الملك على الاطلاق رغم أن علم انجلترا كان يرفرف عليها ، وكان طولها ثمانيا وتسعين قدما وعرضها تسعا وعشرين ، وجعلتها مقدمتها العالية ومؤخرتها المربعة المرتفعة تبدو على حقيقتها : سفينة نقل بنيت كى تحمل شحنة عبر أى بحر كان . . . وعرف جيمس كوك قدرها . . . اذ لا توجد سفينة تصلح لهذا الغرض أكثر مما تصلح سفينة من سفن الشمال .

وما دام الملك يبارك هذه البعثة فلن يدخر شيئا فى سبيل اكمالها وتجهيزها على خير وجه ، ومونت السفينة «الانديفور» بمؤونة تكفيها عامين وسلحت بمدافع قصيرة ومتحركة ، وملئت مخازنها بالأشعر والسوارى والجمال والأخشاب الاحتياطية . كما كانت هناك



مجموعة كبيرة من الحلى الزهيدة كى يتجروا بها مع أهل القبائل المتأخرة ٠٠٠ وكان « طاقم » الضباط والرجال اثنين وسبعين شخصا واثني عشر بحارا احتياطيا ، وانضم الى البعثة ثلاثة علماء : تشارلز جرین ، عالم فلكى قدير ، وسير جوزيف بانكس ، أرسطقراطى شاب غنى بنى لنفسه شهرة فى علم النبات ، وعالم سويدي من علماء التاريخ الطبيعى يدعى الدكتور سولاندر ، وعمل جيمس كوك بجد ومثابرة ، ولم يغب شئ عن نظره الحاد الثاقب ، وبذل هو ورجاله قصارى جهدهم ، ولكنهم لم يستعدوا للرحلة الا فى نهاية الصيف ،



واكتظّ المرسى بالمفرّجين والمودعين .

وودع زوجته الوداع الأخير • ما أكثر الأحداث التى ستمر به قبل أن يحتضن اليزابيث مرة ثانية !! »

واكتظ مرسى بليموث بالمتفرجين ورايات الاحتفال ، وبكت الزوجات والحبيبات ، حين رأين رجالهن يبدءون رحلتهم متجهين الى المجهول ، وتحرك نسيم جنوبى شرقى عبر الماء حين فردت الأشراع واحدا بعد الآخر ورفعت المراسئ وغنى البحارة وهم يعدون السفينة للرحيل وسمع صوت هسهسة الرذاذ الذى تقذفه السفينة وهى تشق طريقها نحو الجنوب بادئة مغامرتها الكبرى ، والنوارس (طيور البحر) تصرخ وهى تحلق فوقها ...

كان ذلك يوم ٢٦ من أغسطس سنة ١٧٦٨ •



الفصل الخامس

الملازم بوك

وبعد ثمانية عشر يوما رست السفينة الأنديفور بالقرب من
 ماديرا رغم أنها كانت تحمل فوق طاقتها ٠٠٠ وهنا ابتلع البحر
 ضحيته الأولى ؛ اذ بينما كان البحارة يلقون بمرساهم اذا بمساعد
 قائد الاقلاع يشتبك في الحبل فيسحبه من المرساة الى البحر ٠٠٠
 وغرق الرجل قبل أن يتمكن أحد من انقاذه ، ورأى البحارة الذين
 يعتقدون في الحرافات أن هذا فال سييء وقالوا ان الأنديفور لن ترى
 تلال انجلترا الخضراء مرة ثانية .

ولكن ما ان حل منتصف نوفمبر حتى نسي البحارة هذا الاعتقاد المظلم الكئيب ، وعبرت السفينة ريو دى جانيرو وأسرت فى طريقها نحو الجنوب واختيرت جزيرة تاهيتى ، فى المحيط الهادى ، كأصلح مكان لمراقبة مرور (فينوس) الزهرة ، وكانت السماء تظل صحوا فى هذه الجزيرة تسعة أشهر من السنة . ولكن كان عليهم أن يملأوا بكيب هورن ، وأن يقضوا أسابيع طويلة قبل أن يصلوا الى المحيط الهادى . وواجه جيمس كوك كل شىء بثقة تامة ، كان يقود سفينة ممتازة ببخارة ممتازين . وأثبت العلماء - وخصوصا بانكس - أنهم مسافرون ممتازون ، غير أنه كانت تهر به لحظات لا يكاد فيها يصدق أنه يقود مشروعا من أعظم مشروعات بلده . إذ لم يكن لها مثيل منذ أبحر كولبس ، من حوالى ثلاثمائة سنة غربا ليكتشف عالما جديدا .

اليابسة ! اليابسة

جعلت هذه الصيحة الحماسية جميع الرجال يصعدون الى ظهر السفينة وصعدت جماعات البحارة الى الجبال ، ونظر كوك بشغف من خلال منظاره المقرب ، فمن الجانب الأيمن للسفينة وجد اليابسة بعيدة هناك - كثيبة يغطيها الجليد - وترتفع فى جوها أعمدة دخان البراكين، أما السماء فكانت مكتئبة ، وكانت أطراف السحب المنخفضة ملونة بوهج نارى . وانضم الدكتور سولاندر وجوزيف بانكس الى القبطان فى غرفة القيادة .

وقال كوك : « ها هى ذى يا أيها السادة » تيرا دل فويجو . أرض النار . وتماها فى المكان الذى يجب أن تكون فيه . »

فصاح بانكس قائلا : « أقسم بربى ان ماجلان لم يكن ليفكر فى اسم خير من هذا ، انها تبدو وكأنها مقر الشيطان نفسه » .

ووافق الجميع على أن أرض النار شاطيء مخيف خطير ، وكانت هناك جزيرة صخرية فى شرق شبه الجزيرة ، وبين هاتين الجزيرتين يوجد الممر المعروف باسم (بوغاز لومير) وكان على السفينة أن تمر فى هذا الممر الخطير حتى تسير حول كيب هورن ، وزاد البرد ، وتراكم الجليد على الجبال والقلاع ، فى حين كانت الأنديفور تبهر عبر الساحل الكثيب ، وهى لا تزال متمسكة بكل خرقة ممكنة من الشراع . ولما زاد الضغط واشتد ، ترنحت السفينة وتأرجحت وأزبد الماء وماج فى بياض حول نصفها الغائص فى الماء ، المحجوب عن الريح .

ووقف جيمس كوك فى ركن فى مؤخر سطح السفينة وهو يلتف فى عباته وأخذ يقيس ويحسب مسار السفينة ، وصمم على أن يمسك بكل شراع ما استطاع . ولما دخلت الأنديفور بوغاز لومير اختلت من كل جانب ، وحطمت الرياح البوصلة ، وهبت أمواج البحر الهائلة على السفينة ترتطم بها وتتكرر عليها . ولكن جيمس كوك كان قد تعلم فن الملاحة فى مثل هذه السفينة فى مياه بحر الشمال البعيدة الغادرة . وكانت صيحاته الثابتة ووجهه الهادىء الجموح تعيد الثقة الى أولئك المترددين وتدخل القوة الى قلوب الضعاف ، من ذا الذى يخاف ومعه مثل هذا القائد ؟

واستمر المرور فى بوغاز لومير طيلة أربعة أيام مليئة بالعواصف والزوابع جاوزت كل الحدود المعروفة للناس من قبل ، ومع كل هذا استطاع جيمس كوك أن يجد وقتا كافيا كى يرسم خريطة للساحل ويسجل ملاحظاته بدقة متناهية .



رحلات جيمس كوك



وبدأت الحاجة الى الماء العذب تلح عليهم ، ولهذا رست السفينة فى خليج مستور ، وارسلت البراميل الى الشاطئ كى تملأ بالماء العذب ، وصنم العلماء وعلى رأسهم الدكتور سولاندر أن يكتشفوا جبلا كانوا يرونه عن بعد وأن يعودوا بكل نبات أو حيوان قد يجدونه هناك ، وتكونت جماعة المكتشفين من عشرة رجال - وهم بمثابة العمود الفقرى لبعثة الجمعية الملكية . وراقبهم كوك بقلق وهم يعدون العدة ، لأن السماء بدأت تمطر جليدا ، ولم يكن أحد يستطيع أن يتكهن بالأخطار الكامنة فى هذه الأراضى المجهولة الوحشية .

وقال كوك لبانكس : « سآمر بإطلاق مدفع فى الساعة الرابعة من بعد الظهر ويجب أن تجيب على بطلقة بندقية اذا سمحت ، ويجب أن تعود الى السفينة قبل أن يحل الظلام بأى حال من الأحوال » .

وأكد جوزيف بانكس هذا لكوك قائلا : « ثق من هذا أيها الملازم » ولكن برقت فى عينيه نظرة غامضة بعيدة كالتى تبدو عادة فى عيني العالم الحق ، وزاد هذا من قلق جيمس كوك ، لو أن هناك رجلا عاقلا واحدا بين هؤلاء السادة العلماء ولكن الجماعة العلمية لم تكن تخضع لسلطة كوك ، ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئا سوى أن يتبرم فى صمت ويراقبهم وهو يرحلون .

وأخذت العاصفة فى التزايد طوال فتيرة العصر وسرعان ما أصبحت الرؤية مستحيلة الا لمسافة قصيرة جدا ، وصرصت الرياح فى الجبال وازداد قلق القبطان ساعة بعد ساعة ، حتى كانت الساعة الرابعة فأمر بإطلاق المدفع ولكن ما من مجيب ، فأطلقت طلقة ثانية ، ثم ثالثة ولكن لم تقابل الا بنفس السكون المشؤم .

وتتمم رئيس النوتية : « لقد هلكوا ، هلكوا جميعا تجمدوا مثل هذا المرسى ، ولا شيء غير هذا » .

وأسكت كوك المتحدث فى غضب ، ولكن كلماته وجدت لها
صدى فى قلبه .

وشارك مستر هيكس - الضابط الأول - رئيسه فى قلقه ،
واقترح قائلاً : « هل أولف جماعة للبحث عنهم يا سيدى ما دمنا
بالنهار ؟ »

« لن يستمر النهار طويلاً ! سيحل الظلام قبل أن تقطعوا ميلاً
واحداً » وكان صوت كوك حاداً مليئاً بالغضب ، والثورة على نفسه .
إذا هلكت هذه الجماعة من العلماء فلن يلوم الا نفسه . إذ كان عليه
أن يفرض سلطته على العلماء بوصفه قبطان السفينة سواء أكان هذا
صواباً أم خطأ . هذه مشيئة الله ، ولكنها لن تحدث ثانية .

وأضاف بحزن : « لسنا نعرف الاتجاه الذى يتجولون فيه ،
وسيكون من الحمق المخاطرة بأرواح أخرى فى مثل هذه العواصف » .

وافق هيكس على مضض ، وظل الرجلان متيقظين طوال الليل ،
بينما ظل الوهج الأحمر على مقدمة السفينة ، وعند الفجر ، وعلى بعد
جهة الشرق سمعت طلقة وحيدة ضعيفة وسط الريح العاصفة
المدوية .

« انهم أحياء » انفجرت هذه الصيحة من أفواه الكثيرين ، ولكن
لم يعد الى السفينة الا ثمانية رجال بدلا من عشرة أقرب الى الموت
منهم الى الحياة . وزادت القصة التى قصها بانكس من عزم كوك
وتصميمه على أن يفرض سلطته على هؤلاء الخياليين .

ففى طريقهم الى الجبل البعيد أخطأ العلماء ودخلوا فى مستنقع
نصف متجمد ، وهناك اكتسحتهم عاصفة ثلجية عنيفة ، واكتشفوا

بعض الأهالي متزاحمين فى أقذر مأوى عرفوه فى حياتهم ، ولكن هؤلاء البؤساء طردوهم بعنف ، وبعد ذلك بقليل انتابت أحد العلماء نوبة صرع ، وظن الجميع أنه لا محالة هالك (وعلى الرغم من هذا فقد شفى بعد ذلك) وأصر اثنان من رجال بانكس على النوم فى الجليد ولم يمنعهما شئ عن تنفيذ رغبتهما ، لقد فضلا الموت على الاستمرار فى هذا النضال . أما الرجال الثمانية الآخرون فشقوا طريقهم بصعوبة طوال الليل محاولين أن يحتفظوا فى أجسامهم المجهدة المتجمدة بشئ من الدفء ، وعند الفجر اكتشفوا الوهج الأحمر الذى على ظهر الأنديفر واكتشفوا أنهم كانوا يسرون فى دائرة واسعة ولو أنهم استمروا على هذه الحال ساعة واحدة بعد ذلك لهلكوا جميعا ، ولكن بالرغم من كل هذا نجح جوزيف بانكس (العالم الحق) فى جمع نوع من الكرفس البرى وفى قتل طائر أرضى لا يعرف نوعه .

وفى ارتياح كبير أعطى جيمس كوك الأوامر برفع المرسى ، كان سعيدا لأنه سيترك هذا المكان المحزن ، وفى الثانى والعشرين من يناير ، أى بعد حوالى خمسة أشهر من ترك انجلترا خرجت الأنديفور من تيرا دل فويجو - أرض النار والجليد .

وبعد ذلك بستة أيام كانت السفينة قد تركت كيب هورن ودخلت فى المحيط الهادى ، وبهذا حطمت الأرقام القياسية مرة ثانية، وارتفعت الروح المعنوية للبحارة نتيجة لتغيير الجو ، لقد ذهب عالم الرياح الثلجية ، والأمواج الهائلة ، وبدأت السفينة تسير فى اتجاه الشمال الغربى عبر بحار فى غاية الهدوء ، وأخذت قطعان الدرافيل تقفز وتغطس حول مقدمة السفينة ، على حين يظهر حوت من وقت لآخر على سطح الماء ، وينفث الماء عاليا فى الهواء . وكانت السماء مليئة بطيور البحر المختلفة ، وحلق فوقها جميعا « القادوس » ملك طيور البحر وأخذ يطير فى سهولة ويسر .

وفي المساء علق الرجال أسرتهم على ظهر السفينة ، وقد أخذت الريح تصفر من خلال الجبال ، وتهدهم وتجعلهم ينامون وكأنها أغنية ما زالت لها ذكراها منذ الطفولة، وفي بعض الأحيان بينما كان جيمس كوك يختبر مكان سفينته بوساطة نجوم المناطق الاستوائية البراقة كان يفكر فى اليزابيث التى تركها تسهر وحيدة ٠٠ وعندئذ كان يتنهد ويحاول أن يبعد هذه الأفكار ، ويفكر فى أشياء أخرى كى يستريح ؛ وتساءل كوك : ما هو شكل تاهيتى ٠٠٠ كان الكابتن واليس قبطان (الدولفين) سفينة البحرية الملكية وقد وصل إليها قبل ذلك ببضع سنين وتغنى بجمال هذه الجزيرة وأناقاة أهلها ، ولكن كوك كان يعرف جيدا أن مثل هذا المكان قد ينمى روح العصيان والتمرد فى نفوس الرجال الذين سئموا البحر وملوه .



ذهب الصباح وأتى المساء ، وذهب فبراير وجاء مارس ، دون أن يحدث تغيير يذكر ، وفى الخامس من ابريل - فى نفس الوقت الذى بدت فيه الرحلة وكأنها لن تنتهى رنت فى الجو صيحة المراقبين الأخاذة وتجمع العلماء حول القبطان بينما تسلق البحارة الجبال الى القلاع ، ولما أشرقت الشمس ، بدأت الجزيرة تظهر بصورة أوضح ، مرتفعات خضراء عالية ، ووديان مظلمة وشلالات تعكس أشعة الشمس وتتحول الى أقواس قزح ٠٠٠ لقد بدت فى أعين الرجال الذين على ظهر السفينة وكأنها حلم من الأحلام . لدرجة أنهم توقعوا أن يتبدد هذا الخيال فى أى لحظة ويختفى من الوجود .

« نعم ٠٠ انها أرض جميلة » قالها جوزيف بانكس مؤكدا ما سبق أن قاله واليس . وأضاف فى مكر : « لقد صدق واليس فى هذا ولو أنه أخطأ كصانع خرائط » .

وأخفى جيمس كوك ، ابتسامته ، وهو يعلم تصحيحا ثالثا في الخريطة :

وهمهم مستر هيكس قائلا : « فى الحقيقة انها جميلة فعلا ولكن تلك التلال الحضراء تبدو وكأنها صنعت للفارين والمرتدين بخاصة ! فى مثل هذا المكان سيكون من الصعب السيطرة على الرجال ومنعهم من أحداث المشاغبات » .

وكانت نفس هذه الفكرة أيضا تضايق كوك وتزعجه ، ولكنه ظل صامتا ، لقد صمم على أن يجعل رجاله مشغولين بصفة مستمرة سواء فى البر أو فى البحر حتى لا يكون لديهم من الوقت ما يسمح لهم بأحداث الشغب وبدأت تظهر الآن غابات أشجار جوز الهند التى تظلل أكواخ القش وتجب عنها وهج الشمس المحرقة ، وكانت هناك مجموعة من السحب التى تنعكس فى الهور الذى فى أسفل قمم الجبال المقوسة ، وهكذا بدت الجزيرة الجميلة وكأنها تقع بين سماءين .

جلجل صوت كوك : « استعد لاطلاق المدافع للتحية ! »

واستعد رجل المدفع خلف مدفعه المحورى ، ودوى المدفع ، وقذف الدخان بقوة ، وسمع صدى الصوت يردد عائلا من اليابسة .

وبعد ذلك بدأت أشنباح صغيرة كالنمل تندفع خارجة من البيوت المغطاة بالقش ، واندفعت أساطيل من الزوارق السريعة الى الماء ، وبدت الجزيرة وكأنها خرجت عن بكرة أبيها بينما مرقت الأنديفور بحذر تجاه المرسى ، فى خليج ماتافاى ، ونفدت الريح من الأشرع وتشقق الحيش واختبط بالساريات ، وسمع صوت جلبة ، بينما

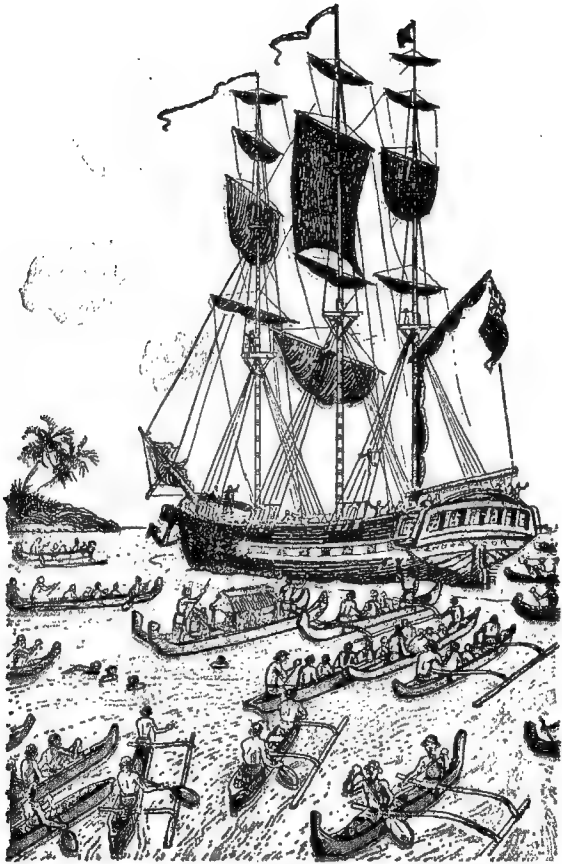
كانت سلسلة المرسى تندفع خارجة من الثقب المخصص وتأرجحت الأنديفور مع حركة المد ثم هدأت وسكنت في مكانها .

ثم امتلأ الخليج بالزوارق وتوهجت الشمس منعكسة على المجاديف المبتلة والأجسام النحاسية التي تتراقص على أنغام أغنية بدائية ، وسبح السباحون الذين تكسوهم الأزهار في سهولة ، ومرونة ، وكان في مقدمة الزوارق ، زورق مزدوج تغطيه حصيرة وسرعان ما وصل الى مؤخرة السفينة .

فقال هيكس : « ان هذا ملكهم ولا شيء غير هذا . . . يا للهول ، ان هذا الزورق يبدو وكأنه « الصندل » الملكي نفسه ! »

وثبت هذا فعلا ، وكان هناك بولينى مسن ونصف عار جالسا على منبر مرتفع عبر الزورقين ، كما كان هناك زورق آخر يحمل الملكة ومرافقيها . . . ورفعت الأنديفور أعلامها ودوت في الجو أربع طلقات مدفعية تحية للملك .

وفى رشاقة مدهشة لشخص فى مثل سنه ، تسلق الملك توتاه السلم المصنوع من الحبال ، ودلى رجليه من فوق حاجز السفينة ، ثم وقف على ظهر السفينة يبتسم ، رجل يزيد طوله على المتوسط قليلا ، يرتدى « رهاطا » من التابا البيضاء ، وتسطع فوق صدره البرنزي العارى قلادة من أسنان كلب البحر ، وكان يشعر بفخر كبير ونبل عظيم لأنه يرتدى هذه التركة التى ترجع الى أربعين جيلا من الزعماء والأكابر ، ودهش كوك حين أمسكه توتاه من كتفيه وحك أنفه بأنفه ليحييه ، ثم أصدر توتاه أمره الى أحد تابعيه فاندفع صاعدا وحمل معه صندوقا صغيرا مصنوعا من القرع وبصق الملك فى الصندوق مراعى ألا يفقد نقطة واحدة من البصاق ، ثم غطى التابع الصندوق باحترام واحتفظ به ورعاه ، فان أى ملك له أعداء



واندفت أساطيل من الزوارق السريعة تتجه نحو السفينة

يعرفهم أو لا يعرفهم بشريين أو خرافيين لا يخاطر ببصاقه أو بقلامات أظافره حتى لا تقع فى أيدى أعدائه الذين يبيتون له نوايا سيئة .

ولما انتهى هذا وضع الملك يده على صدره العارى وأعلن : « أنا توتاهما . . . أنا ملك تاهيتى » .

ما من شك فى أن هذه الجملة استنفدت من الكابتن واليس كمية كبيرة من الكلمات الانجليزية .

ومنذ تلك اللحظة حتى يوم الرحيل بعد ذلك بثلاثة أشهر سيتطور جيمس كوك ورجاله بفن لغة الاشارات . . . وفى نفس الوقت ملت الملكة انتظار اذن مليكها فرفعت جسمها السمين وصعدت السلم المصنوع من الحبال ، وبعد أن وقفت على ظهر السفينة أصرت هى الأخرى على أن تحك أنفها بأنف كوك وهى تبتسم بسعادة ، وفشل كوك فى منع هذا ، وكانت الأزهار تكسو شعر الملكة الأسود المتدلى كالعباءة حتى ركبتيها . . . وفى هذه الأثناء كانت وصيفتان من وصيفات الملكة نحاسيتا اللون تلوحان بالمراوح المجدولة فوق رأسها على حين كان كل فرد يشعر بجو ودى طيب .

وقالت الملكة مبتسمة : « أيا أورانا ، أيا أورانا أوتو ! » ولا يمكن أن يفهم لهذه الكلمات معنى سوى « مرحبا » .

وسمع صوت مستر هيكس وهو يهمس لرئيس النوتية :
« هل تتخيل » هؤلاء القوم من أكلة لحوم البشر » .

فأجاب رئيس النوتية : « لا يمكن القول بهذا ، ولكن أسنانهم على أى حال تسمح لهم به » .

وسحب البولينيون كميات كبيرة من السمك المجفف ، والموز ،

والخبز المصنوع من الفاكهة الى ظهر السفينة ؛ اذ أن الزوار الملكيين لم يأتوا الى السفينة بأيديهم فارغة . فأخرج جيمس كوك زجاجة من أفخر أنواع النبيذ الذى عنده ، وفطيرة فواكه كانت اليزابيث قد أعدتها له ووضعتها بحرص فى علبة من الصفيح وتبودلت المنعشات ، والتهم الملك والمملكة الفطيرة الجافة ، على حين اغرورقت أعينهما بالدموع من جراء شربهما للنبيذ ، ولكنهما قاوما بنزعة ملكية حتى يحتفظا بالوقار ولا يسيثا الى مضيفيهما ، أما كوك والعلماء فقد اتهموا برجولة ما أمكنهم من السمك المجفف ، كرية الرائحة ، وبهذا بنيت الصداقة بينهم ، ولما استأذن توتاهما وملكته فى النهاية كانت ملامحهما تنم عن أن تاهيتى وكل امكانياتها قد أصبحت تحت أمر الانجليز وبهذا نجحت أولى مراحل البعثة .

غير أن جيمس كوك كان يعرف أن بحارته بأساليبهم الجافة يمكن أن يسيثوا الى هؤلاء القوم البسطاء المرهقين ، ولهذا فإن عليه أن يضع القانون توا ! وبالفعل علق اعلانا على الصاري الرئيسى ، وفيه أوامره بحسن السلوك على الشاطئ ، وقواعد الاتجار مع الأهالى ، يحذر فيه أول من يخالف هذه التعليمات ، بأنه سيجلد عشرين جندة لأن الجلد فى البحرية الملكية كان فى العادة عقوبة أى اساءة ترتكب ، وهى عادة كان يكرهها جيمس كوك ، ولكن سلوك رجاله يعنى نجاح مهمته أو فشلها . والويل لمن يخالف أوامره !!

وبعد ظهر ذلك اليوم ، نزل الانجليز الى الشاطئ للمرة الأولى وحياهم جماهير التاهيتيين الذين لوحوا لهم بالفروع الخضراء ، دليلا على الصداقة ، فبدا تقدمهم على الشاطئ وكأنه موكب ملكى . . . لم يكن قصر الملك بعيدا عن خليج ماتافاي . . وهذا القصر عبارة عن مسكن واحد طويل مسقف بالقش . أما جدرانها فكانت مصنوعة من الغاب المشقوق الذى تمر الريح خلاله بطلاقة . . . وهنا فى هذا

المكان انتظار الملك توتاهما وملكته رد زيارة ضيوفهم العظماء .

ولكن كوك كان يفكر فى المستقبل بعقله النشط فلاحظ أن ساحل الخليج البعيد يصلح موقعا رائعا لبناء قلعة ، وعلى هذا يمكن إقامة المعدات العلمية ، استعدادا لمرور الزهرة تحت حماية مدافع السفينة ٠٠٠ وتضايق كوك وغضب لأنه لم يكن يحب أن يضع كل هذا الوقت فى اللوائم والأفراح ، ولهذا صمم على أن يبدأ العمل فى القلعة فى الصباح مباشرة .

وسرعان ما وقعت حادثة زادت من تصميمه هذا ؛ فقد أعدت وليمة للزوار ، وكان الموسيقيون يعزفون على الناي ويدقون الطبول ، وحيا توتاهما الانجليز على عتبة القصر بحفاوة كبيرة ٠٠٠ وجلس المدعوون توا على الأرض فى دائرة حول وليمة فاخرة : لحم خنزير محمر ، ولبستر ، وأنواع عديدة من الأطعمة البحرية ، وأنواع مختلفة من الفاكهة ، آنية كبيرة بها عجينة رمادية تسمى « بوا » وشرح توتاهما للمدعوين كيف يؤكل البوا ، وهى أخذ حقة وقذفها بسرعة الى الفم ، وتذوق الانجليز البوا ، فوجدوها ذات طعم قطع العجينة المرة ، واستمرت ألوان الطعام تمر نوعا تلو الآخر ، والموسيقي تصدح بأنغامها الرتيبة التى لا تنقطع . ومرت على المدعوين كؤوس آلافا (وهو شراب زنج مصنوع من جذور النباتات وماء البحر) ، تنتقل من شفة الى أخرى وتصحبها عبارات الصداقة ، والمودة التى لا تنقطع .

وفجأة قطعت هذا المرح دفعة من طلقات البنادق فهب كوك واقفا فى تصلب وامتقع لون جوزيف بانكس ، وساد الجميع صمت رهيب ، واعتري البوليفيين خوف شديد واختفى الأهالى المتجمعون خارج القصر ، وكأنه فعل سحر .

وحزن كوك حين اكتشف ما قد حدث : كانت هناك فرقة مكونة من ستة من البحارة ، تحت رياسة ضابط صف بحرى ترافق الجماعة التى نزلت الى الشاطئ وقف هؤلاء البحارة أثناء الحفل يحرسون فى تراخ ، فخطف أحد التاهيتيين بندقية بحار وأطلقها ، فما كان من ضابط الصف البحرى ، الا أن أصدر الأوامر بإطلاق النار فأصيب عدد كبير من الأهالى بجراح ، ومما زاد الأمر سوءاً أنهم طاردوا اللص وأطلقوا عليه النار فأردوه قتيلاً ٠٠٠ وهكذا عرض ضابط الصف بتهوره هذا حياة الجماعة كلها للخطر ، كما خاطر بالهدف الذى جاءت من أجله البعثة •

فغضب جيمس كوك وثار ثورة عارمة لم يثر مثلها من قبل وجرّد الضابط المخطئ من رقبته ، ثم أعرب كوك وجماعته عن أسفهم الشديد وحسن نيتهم واستأذنوا من الملك والملكة ٠٠٠ ولكن الحسارة كانت قد حلت ، وساد البرود التاهيتيين ، وكأنه وباء ، وسحبوا جميع دلائل الصداقة التى كانوا قدموها بسخاء ، ولن تستعاد هذه الثقة والصداقة الا بعد مدة طويلة ٠٠٠ لقد كانت فترة العصر نهاية سيئة للصباح الجميل ٠٠٠

* * *

وفى اليوم التالى بدأ العمل فى القلعة ، وسمى كوك المكان الذى اختاره « نقطة الزهرة » نسبة الى الكوكب الذى جاءوا ليراقبوه ، وببنى رصيف على ارتفاع خمس أقدام ، يحميه خندق ، وخلف هذه المتاريس ستوضع الآلات العلمية فى خيام ، وعلى بعد مائة ياردة من هذا المكان ترسو الأنديفور بمدافعها مستعدة لحماية القلعة والرجال الذين يعملون ، وأخذت جموع التاهيتيين يراقبون الرجال وهم يعملون ، اذ لم يكن البولينيون الذين يعيشون على سبجيتهم فى حياة

سهلة بسيطة يعرفون هذه الأعمال اليدوية ، ولكن سرعان ما ظهرت صفة من صفات الأهالي السيئة ؛ فقد كانوا لصوصا مهرة لا يخجلون ولهذا سرعان ما اختفت السكاكين والبلطات والمسامير والفؤوس ، وكأنها حركات تنم عن خفة يد ، واكتشف الدكتور سولاندر أن حقيبته الجلدية التى فيها نظارته سرقت من أمام عينيه ، كما سرق صندوق النشوق الخاص بجراح السفينة ، وفى الليل اختفى توتائها وحاشيته . وبهذه الطريقة لم يعطوا لكوك أية فرصة لإصلاح ما قد فسد .

وبعد ذلك بأيام قلائل حدثت حادثة أطرف من هذه ؛ اذ خرج جوزيف بانكس والدكتور سولاندر برفقة القبطان فى بعثة مساحية على الساحل ، وبدلا من أن يعودوا الى القلعة لقضاء الليل قرر كوك والدكتور النوم فى أحد أكواخ الأهالي بينما نام بانكس فى زورق راس على الشاطئ .

وقبل النوم خلع كوك جواربه وطواها تحت رأسه ، ولما استيقظ فى الصباح التالى لم يعثر للجوارب على أثر . . . وكذلك كان حظ سولاندر أسوأ من كوك ، لأنه فقد جميع ملابسه الخارجية . . . ولما خاض بانكس فى الماء عائدا الى الشاطئ كان من الواضح أنه لا يرتدى سوى سراويله ، أما صدريته ومسدسه وعلبة الذرور « البودرة » الخاصة به فقد اختفت جميعا من الوجود أثناء نومه .

ونظر الرجال الثلاثة بعضهم الى بعض فى خجل وأسف ، وتمتم الدكتور الطيب قائلا : « ليباركنى الله . ان هؤلاء الهمج قد يسرقون أسنان المرء من بين فكّيه لو أنها كانت غير ثابتة » .

ورافقه بانكس قائلا : « رغم ابتساماتهم هذه فانهم ليسو سوى مجموعة من النشالين الذين تقابل مثلهم فى زقاق من أزقة لندن » .

ولكن ما خفى كان أسوأ .. فقد حدثت حادثة كادت تودي بالبعنة ، فلما أشرفت القلعة على الاكتمال جىء بالأجهزة العلمية الى الشاطئ ومن بينها مزولة ، صنعت خصيصا لهذه الرحلة ، وكان هذا الجهاز الذى يزن عدة أرتال يستخدم فى مراقبة ارتفاع النجوم وزواياها ، فوضعت فى خيمة عليها بحار خاص لحراستها .

وفى صباح اليوم التالى : اختفت المزولة .

ولم يعرف البحار كيف يمكن أن يسرق شيء كهذا ، وشعر جيمس كوك باليأس اذ يجب العثور على هذه المزولة فورا والا فشلت البعثة ، ولحسن الحظ عاد توتاهما الى القصر فى هذه اللحظة ، وبدا أن الملك كان يريد أن ينهى الخلاف بينه وبين الانجليز ... وأخيرا أعيدت المزولة بمساعدة الملك قطعة قطعة وركبت ثانية ، ولكن شخصية اللص لم تعرف أبدا .

واقتربت أواخر مايو ، وكان الكسوف متوقعا فى الثالث من يونيو وكان على كوك وسولاندر مراقبة الظاهرة الطبيعية من « نقطة الزهرة » فى حين أبحر بانكس وضابط السفينة عبر الخليج الى جزيرة موريا لأخذ مناظر مستقلة .

وحانت الساعة المرتقبة التى أبحروا من أجلها نصف دورة حول العالم ولم يشب السماء الاستوائية أية سحب ، ونظر كوك ورفيقه بشغف خلال مناظيرهم المقربة ، فى حين دقت ساعة العالم الفلكى العظيم الموضوعة فى خيمة خاصة تعد الثوانى المحتومة .

ومع أول بصيص من ضوء النهار قطع قرص كوكب الزهرة المظلم حافة الشمس ، وعند الظهر كان من الواضح رؤية القرص المنتشر على الشمس حتى للعين المجردة ، ولما حانت الساعة الثالثة

كان العبور قد تم وقورنت الرسوم التى رسمها كوك مع الرسوم التى رسمها جوزيف بانكس ٠٠٠. لقد أنجز الرجال الانجليز مهمة بعثة الجمعية الملكية على أحسن وجه .

* * *

وحلت ساعة الرحيل ٠٠٠ وصمم جيمس كوك قبل أن يترك تاهيتى على أن يبحر حول الجزيرة ، ويرسم خريطة لساحلها ويسجل أعماق المياه وقام كوك بهذا بمهارته المعهودة ٠٠٠ وشعر ببعض الضيق والأسف على أنه سيتترك هذه الجزيرة الجميلة . لأنه بالرغم من عادة الأهالى القبيحة فى أن يأخذوا ما ليس لهم ، الا أن لهم مواهب عظيمة من الكرم والصدقة وخفة الروح . كما كانت حياتهم فى هذه الأرض الطيبة حياة سهلة سلسلة ٠٠٠ وفى الواقع تسببت هذه الحقيقة ذاتها فى وقوع الحادثة التى أخرت ابحار الأنديفور ؛ اذ فر اثنان من بحارة السفينة . ولم يعرف أحد من أين يبدأ البحث عنهما فى مروج تاهيتى الخضراء وسرعان ما استقر رأى كوك على خطة جريئة ، فدعا الملك والملكة على ظهر السفينة ، فلبى توتاهى الدعوة غير شاك فى الأمر ، وما ان صعد توتاهى الى ظهر السفينة حتى أخبره كوك أنه اذا لم يقبض على البحارين الفارين ويعادا الى السفينة فستبقى الأسرة الملكية رهينة الى الأبد ٠٠٠

ويجب أن نتذكر أن تاهيتى ليست جزيرة كبيرة ، وأن جميع قراها متصلة فيما بينها بنظام اتصال معروف باسم نظام « الدالية » فحين تدق الطبول على التلال تنقل الرسائل بسرعة فائقة من طرف الجزيرة الى الطرف الآخر، وهكذا لما وصل قرار كوك الأخير الى الشعب (الذى يحب مليكه ومليكته ويحترمهما) . بدأت الطبول تفرق ٠٠٠ وبعد ذلك بأربع وعشرين ساعة تماما وجد البحاران الفاران مختبئين

فى الجبال وأعيدا الى السفينة ، وفى الحال أطلق سراح الرهينتين الملكيتين ، وأعطيت الأوامر برفع المرسى .

ومرة أخرى امتلأت المياه بالزوارق والسباحين تماما كما حدث فى اليوم الذى كانت فيه الأنديفور تبصر فى خليج متافاى ، وودع كوك ورجاله الأهالى البولنيين الوداع الأخير ، وغفر الجميع لبعضهم ما سبق أن حدث من سوء تفاهم ، وتبذلت الهدايا ، وحك توتاهما وملكنته أنفيهما مع جيمس كوك ، ودمعت أعينهم لوحشة الفراق . ولوحت المجاديف . وطفقت باقات الأزهار على أمواج الجزر ، وكان الأهالى على الشاطئ يرددون احدى أغنياتهم القديمة التى سرعان ما تاهت بين أنغام البحارة المتكاثرين على أعمدة الملونيات .

ها هى ذى ترتفع عاليا !

ها هى ذى ترتفع عاليا !

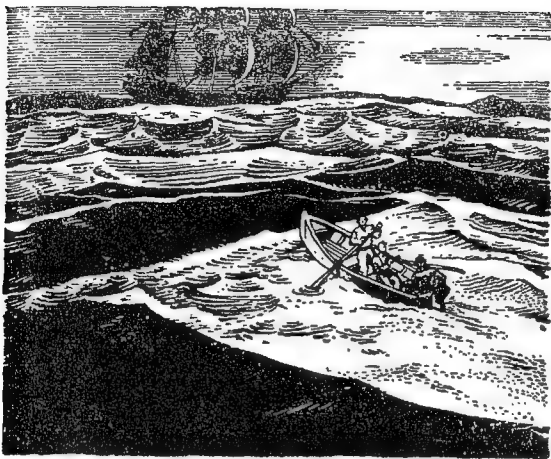
هلموا أيها العتاة هلموا !



ورفع البحارة المرسى من القاع المرجاني ، وتركت السفينة الزوارق خلفها وهربت بسرعة عبر الخليج وكأنها غزال تطارده الكلاب ثم مرت في الممر الذي تحده الشعب والصخور حيث الأمواج الجياح تحاول أن تصل إليها وهي تهرب .

ونظر جيمس كوك نحو مؤخر السفينة لحظة فبدت قمم تاهيتى العالية ترتفع وتعلو أكثر وأكثر حتى التطمت بسحب الصباح المتلألئة وشطرتها شطرين .

وكانت مياه المحيط الباسفيكى الفسيحة الخالية تمتد أمامهم وخرجت الأنديفور الى الأمواج المتلاطمة تواجه المجهول .



الفصل السابع

طريق العودة الطويل

وبعد أن تركت الأنديفور جزيرة تاهيتي طافت بسلسلة من الجزر المجاورة - ولكن تاهيتي كانت أكبرها - وأطلق كوك على هذه الجزر اسم « جزر الجمعية » تكريما للجمعية الملكية ثم اتجه بالسفينة جنوبا .

ومرت أسابيع طوال قبل أن يروا اليابسة ثانية، سبعة أسابيع لم يروا فيها سوى الماء والسماء ، وكانت الأرض التي ظهرت عبارة

عن سلسلة بعيدة من الجبال الغامضة ، جعلت جميع من فى السفينة يخمنون أى أرض يمكن أن تكون هذه ؟ ورأى جوزيف بانكس أنها قارة « دالريمبل » الجنوبية العظيمة •

ولكن جيمس كوك لم يشاركه فى هذا رأى ، وقال : « فى اعتقادى أن هذه جبال نيوزيلندا ، فقد رسمها طسمان على الخريطة فى هذا المكان الاستوائى تماما » •

واستفسر الآخر فى تعجبهم وحيرة « طسمان ؟ »

« نعم ، الملاح الهولندى العظيم ، لقد رأى مثل هذه السلسلة من الجبال تماما منذ أكثر من مائة عام فى جنوب منطقة مدار الجدى الاستوائية •

« وهل نزل طسمان الى الشاطئ وأخذ لنفسه الحق فى هذه الأرض ؟ » •

« لم يفعل اذ اضطرته جماعة من الأهالى الى الرجوع ولم يتتبع الهولنديون كشفه هذا » •

ولمعت عينا بانكس : « اذن تلك الأرض - أيا كانت - تنتمى الى الدولة التى تطالب بها ؟ »

« انك تأخذ الكلمات التى على لسانى تماما ياسيدى » •

منذ أمد بعيد درس جيمس كوك كل ما نشر عن هذا الجزء من المحيط الباسيفيكي ، فلم يقرأ يوميات طسمان وحدها بل قرأ كل شئ عنها ولكنه ذكر الحرائط الأولى لهذا الملاح الهولندى ، نعم فى اعتقاد كوك أن هذه الأرض التى تبدو بعيدة ما هى الا نيوزيلندا •

وسرعان ما تأكد منها ، لأنه لما أفرغت الأنديفور الريح من أشرعها ووقفت مستعدة في اتجاه الساحل ، انطلق زورق حربى هائل من خلف لسان فى البحر وعبر المنطقة التى تشرف عليها السفينة ، لقد كان طول الزورق سبعين قدما وتزينه رموز غريبة ، وكان الجدافون أنفسهم يشبهون التاهيتيين غير أن أجسامهم كانت موشومة وشما شنيعا .

وانفجرت من بين شفاههم صيحات التهديد ، ولوحوا بمجاديفهم فى طريقة حربية .

وأصر كوك على اعتقاده قائلا : « لقد وصف طسمان مثل هذا العنصر من الآدميين تماما ، من الذى يستطيع أن يلومه لأنه لم ينزل الى الشاطئ . اننى أراهن بأن هذا الزورق فى صلافة الأنديفور ، ويمكنه أن يبحر مثلها بسهولة وسرعة » .

ولم يصف كوك أن قوتها من الرجال يمكن أن تؤكد تقدمها بشكل أسرع من الأنديفور ، لأن الزورق الحربى كان يحمل حوالى مائتى مقاتل وهو أكثر من ضعف عدد رجال كوك ها هو ذا عدد قوى حقا . . . حقيقة ان مدافع الأنديفور المركزية يمكن أن تبقى الزورق على مسافة بعيدة ولكن اذا اقترب الزورق منها فان أهالى المنطقة سيتفوقون على الانجليز بسهولة .

وفجأة قذفت السفينة بوابل من الصخور ، وكانت بعض هذه القذائف موجهة توجيها دقيقا فأصابت ظهر السفينة وأسقطت عددا غير قليل من البحارة . . . لقد حانت اللحظة التى يجب أن يظهر فيها تفوق البارود والمدافع ، فأطلقت مجموعة من الطلقات فوق رؤوس المحاربين الذى يصرخون ، ففرع أهالى نيوزيلندا من هول الضوضاء التى أحدثتها المدافع ونافورات المياه التى أحدثتها دانات

المدافع التى تزن أربعة أرتال ، وفروا عائدين الى الشاطئ ، فلم يتردد من قبل فى تلاحمهم صدى مثل هذا الرعد الجبار ، ومع ذلك لم يبد فى صيحاتهم الحربية شىء يدل على الخوف ، لقد تقهقروا - هذا صحيح - ولكن ما من أحد يشك فى أنهم سيعاودون الهجوم .

تمتم سولاندر قائلا فى شك :

« أظن أننا نستطيع أن نتغلب على مثل هذا الشعب ؟ »

فذكره كوك قائلا : « ان أسلحتهم حجرية ، ولم أر أى دليل على وجود المعادن بينهم » .

واقترح سولاندر قائلا : « أعتقد أن البلطات والفئوس ستكون رسل السلام » .

« هذا صحيح ، لأن الشخص البدائي، يعتقد أن المسمار يساوى أكثر من وزنه لأولوا ، ولهذا فانا نستطيع أن نجاهد كى ننجح »

ولكن لما ذهب مجموعة من الرجال الى الشاطئ بعد ذلك ببضع ساعات قابلهم وابل من الرماح . . . فحذر عريف السفينة البحارة وطلب منهم الرجوع ثم أطلق النار على الأهالى الذين استأنفوا الهجوم توا . . . سحب أحد الأهالى رمحه وصوبه على العريف رأسا، فانطلقت طلقة أخرى قتلت المحارب فى الحال . . وانزعج جيمس كوك كثيرا لهذا اللقاء الأول بين رجاله وبين أهالى نيوزيلندا ، لأن اراقة الدماء تعتبر بداية سيئة . . . ماذا يمكن أن تؤول اليه هذه الخطط الحربية ؟ وصدرت الأوامر برفع المرسى واتجهت السفينة جنوبا ولكنه قبل أن يرحل من هذا المكان أطلق عليه اسم « خليج الفقر » .

وانتقل نبأ وجود الأنديفور على طول الساحل عن طريق اشارات الدخان بسرعة فائقة تفوق سرعة انتشار النار فى البرارى وكان جنود البحرية فى حالة استعداد دائم وأفراد « أطقم » المدافع فى مواقعهم الحربية ، لأنه كانت توجد خلف كل لسان فى البحر زوارق بحرية حربية ، مستعدة للوثب والقتال ، ورغم كل هذه الأخطار قضى كوك ساعات طويلة فى رسم خريطة للساحل - فى عمل رسوم غاية فى الدقة ٠٠٠ ولم يغب عن ذهنه أنه قد ينجح عن طريق المصادفة الطيبة فى كسب صداقة هؤلاء القوم المحاربين العظام .

وفى يناير اكتشف خليجا محميا يمكن منه للانجليز أن ينزلوا الى الشاطئ دون أن يخشوا هجوم أحد ، وأسمى كوك هذا المكان « مضيق الملكة شارلوت » تكريما لزوجته ملك انجلترا وكان فى هذا يتبع مبدأ قويا نابتا ٠٠٠ لقد رسم على خرائطه من قبل « كيب بوليزر » نسبة الى صديقه ونصيره القديم سير هيو ، « وشبه جزيرة بانكس » نسبة الى سير جوزيف وجزيرة سولاندر « تكريما للعالم السويدي - أسماء سيخلدها التاريخ .

وطوال هذه الأشهر التى قضتها البعثة فى البحر لم تكن هناك حالة مرض واحدة بدءا الأسقربوط ، ولكنهم يجب أن يعثروا فوراً على ماء وطعام « طازجين » اذا أرادوا أن يظلوا محتفظين بهذه الصحة ٠٠٠ زد على ذلك أن خشب السفينة يجب أن « يقلط » وأشرعتها يجب أن تصلح ، ونحاسها يجب أن يجلى ويصقل ، ولهذا سرعان ما أقاموا معسكرا على الشاطئ وأعيد ملء البراميل وأتى الخطابون بالوقود من أرض بدت وكأنها غابة واحدة كبيرة ووضع المسثول عن السلاح بارود السفينة فى الشمس كي يجف ، فى حين بحث العلماء عن النباتات والطيور النادرة ، وصاد بعض البحارة الطعام الذى يصلح ، وأخذ البعض الآخر يغلى القطران الذى يؤمن ألواح السفينة ،

ووصلاتها التي تحت الماء ، ودبت الحركة والنشاط فى السفينة والشاطئ .

ولم يمض وقت طويل حتى جاء أهالى نيوزيلندا أو الماورى (١) كما يسمون أنفسهم الى الانجليز يحملون علامات الصداقة والمودة ، واستبدلوا بالبيض والفاكهة والبطاطا المسامير والبلطات عن طيب خاطر ، وابتهج كوك لهذه الفرصة التي واثته أخيرا كى يتعلم شيئا عن أهالى هذه الأرض العظيمة ولقد كانت القبائل محاربة معادية فى الانحاء الجرداء من خليج الفقر حيث كانت المعيشة شاقة صعبة ، ولكن هنا فى مضيق الملكة شارلوت هذه المنطقة الغنية بأطعمتها كان الأهالى يميلون الى التصادق ورغم أن هؤلاء الماورى كانوا يعيشون فى العصر الحجري ، الا أنهم أظهروا عبقرية وذكاء أدهشا الأغراب ، وكانت تكثر فى غاباتهم الجذوع الرفيعة ، وهنا فى هذه الغابات ، وجد كوك شجر الصنوبر الكورى العظيم ، بلغ ارتفاع احدى هذه الأشجار ستين قدما فوق الأرض ومحيطها ١٩ قدما ، ولكنها مستقيمة استقامة السهم مخروطية الشكل قليلا ، وكان اسقاط مثل هذه الأشجار بالبلطات الحجرية يعد عملا شاقا جدا ، ورغم هذه الصعوبة كان الماورى يقطعون الألواح التي يزيد طولها على الستين قدما وعرضها على الاثنى عشرة قدما ٠٠٠ وكانت زوارقهم ، وبيوتهم مزينة بنقوش خشبية متشابكة صنعت بواسطة الصدف والعظام المشحوذة ، وكانت « بلطاتهم » منحوتة من حجر أخضر يشبه الزبرجد ، ولكنها كانت صلبة جدا رائعة الجمال رغم شكلها البسيط .

(١) الماورى شعب قاتم البشرة من أصل بولينيزى هم سكان نيوزيلندا أصلا

قل وصول الأوربيين البيض .

ولم يكن الماورى بأقل أناقة من أهل تاهيتى لولا هذا الوشم الأزرق الذى قصد به اخافة الأعداء كما كانت لغتهم تشبه لغة التاهيتيين ٠٠٠ ولما كانوا بحارة بطبيعتهم فقد أمدوا جيمس كوك بمعلومات قيمة عن الساحل والموانئ فتعلم منهم أن نيوزيلندا كانت تتكون من جزيرتين ولهذا صمم كوك على أن يبحر حولهما ويرسمهما، واقترح جوزيف بانكس أن يطلق اسم «ممر كوك» على الممر الذى بين الجزيرتين الشمالية والجنوبية ، وهو الاسم الذى ما زال يحمله هذا الممر حتى الآن وتخيّل كوك هذه الأرض الطيبة ، يسكنها الرجال والنساء الانجليز ، لقد بدت امكانيات اكتشافه كبيرة لا حد لها .

وفى الأشهر التالية رسم كوك خرائط لأكثر من ٢٤٠٠ ميل من الساحل وأطلق أسماء « على الروس والحلجان والأنهار والجزر حسب الأحداث المناسبة لها : خليج الرخاء . خليج العطش ، نهر النعامة ٠٠ الخ وكان العمل أثرا لقدرته ، ولكنه شعر فى هذا الوقت أن تعليمات الأدميرالية (ادارة السلاح البحرى) قد أنجزت ، وأن الوقت قد حان للتفكير فى الوطن .

وكان أمامه طريقان ، الشرقى عن طريق كيب هورن ، والغربى عن طريق جزر الهند الشرقية الهولندية ، فقرر أن يسلك الطريق الأخير لأنهم يستطيعون أن يأخذوا تموينهم للرحلة الطويلة المتعبة من جاوة ، زد على ذلك أن مثل هذا الطريق يمكن أن يخدم هدفين فى آن واحد فالجزيرة القارة التى تسمى استراليا (التى أبحر حولها طسمان) تقع على بعد ألف ميل فقط من ناحية الغرب ، ولم يرسم منها الرجل الهولندى العظيم سوى شريط صغير من الساحل دون أن يرسم عليها ، ولم يعرف شئ عن داخل القارة . ها هو ذا تحد لا يمكن اهماله ، على الأقل ليس جيمس كوك بالرجل الذى يهمل شيئا كهذا .

وبعد ثمانية عشر يوما من ترك نيوزيلندا شوهدت بشائر
الطيور البرية للقارة الجديدة ، وقبل أن ينام جيمس كوك فى تلك
الليلة كتب فى مذكراته أننى أشعر أنى أفق على حافة اكتشاف
عظيم » .

كم صدقت غريزته هذه !

لقد كان الملازم هيكس الذى كانت عليه المراقبة فى الصباح
هو الذى أيقظ القبطان .

وصاح الضابط فى ثورة : « انها اليابسة يا سيدى ! على بعد
فرسخين (ستة أميال) من مقدمة السفينة » .

فهب كوك واقفا محاولا أن يكبت العاطفة الجارفة التى انتابته .

واندفع هيكس يقول : « شاطئ منخفض يا سيدى وله لسان
صخرى عند الجنوب » .

أستراليا . . . آخر اكتشافات العالم العظيمة . . وضبط
كوك صوته وهو يقول : « هذا رائع أيها الملازم ، حينما أرسم
خريطتى ذكرنى أن أطلق اسما على هذا اللسان . . ما رأيك لو
سميناه « لسان هيكس » .

وأشرق وجه الضابط الشاب بالفخر ، وتلعم قائلا : « أشكرك
يا سيدى . . . أشكرك » .

وحذرت الرياح المضادة والتيارات الحائلة الأنديفور من الاقتراب
وبدا لضابط الاقلاع فى حيرته أنه لا يوجد أى مرسى آمن . . وعلى
الشاطئ أمكن رؤية اشارات الدخان خلال المنظار المقرب

(التليسكروب) ، ربما كانت اشارات السكان الأصليين ٠٠٠ وهناك في أحد الأماكن بدت جماعة من الرجال السود العراة وكأنها تتابع السفينة ، ولكنهم لم يشبهوا البولينيين الأنبيين في شيء .

وأخيرا في التاسع والعشرين من ابريل ١٧٧٠ استطاعت السفينة أن ترسو في ستار ميناء رائع ٠٠ ولما كانت هذه المنطقة مليئة بعينات النبات الجميلة ، فقد أطلق عليها في الحال اسم « خليج بوتاني » (علم النبات) . وعلى الشاطئ كانت تظهر مجموعة متزاحمة من المآوى البدائية لا تختلف عن مأوى أهالي تيرا دل فويجو . وفي الحال اختفت النساء والأطفال ، وتقدم ستة رجال سود عراة بأجسامهم مخططة بطلاء أبيض ، تقدموا يتحدثون الانجليز ، وكان بعض الهمجين يتسلحون بالرماح والبعض الآخر بأسلحة خشبية غريبة تشبه المنجل ويسمونها « البومرنج » ، وسرعان ما قذفوا الرماح ولكنها كانت سيئة التصويب سهلة الروغان ، ورد الجنود البحريون العدوان باطلاق مجموعة من قنابل المدافع فوق رؤوس الزنوج الذين فروا هاربين في الحال تاركين نساءهم وأطفالهم وراءهم مطلقين صيحات غريبة تشبه أصوات الطيور ، أما النساء فقد تركن بدورهن الأطفال وفررن الى الغابة وأصبحت استراليا فاتحة ذراعها مستعدة لاستقبال الغزاة .

ودقت الطبول مستجيبة لانطلاق ثلاث دفعات من المدافع وحسر الرجال رؤوسهم تحية لرفع علم بريطانيا ، باسم الملك جورج الثالث وأطلق على المنطقة اسم « جنوب ويلز الجديدة » .

* * *

وفى الأيام التالية وجد كوك ورجاله أن الأهالي لا يضايقونهم ، ها هي ذى أرض رائعة خصبة ، ذات أشجار عالية رفيعة مليئة

بالطيسور المختلفة ، والخليج نفسه حتى مليء بالأسماك مكتظ ببلح البحر والمحار ولما جلس كوك ليكتب فى يومياته التى يسجل بها الوقائع ، لم يكن يظن أنه يكتب نبوءة مشهورة عن استراليا :

فى هذه البلاد الفسيحة لا يمكن أن يشك أحد فى أن أغلب أنواع الحبوب والفاكهة والجنود من جميع الأشكال يمكن أن تزدهر لو أنها أحضرت الى هنا وغرست وزرعت ، وهنا علف لقطعان من الماشية ، فى جميع الفصول ، أكثر مما يمكن أن يؤتى به الى هذه البلاد .

ربما كان سر ما سجله جيمس كوك أنه ما زال فيه جزء صغير من بقايا ابن المزارع ، ومع هذا فان خصوبة نيوزيلندا نفسها لم تؤثر فيه وتجعله يعبر عن نفسه بمثل هذه العبارات الرنانة ، لقد كانت استراليا التى تركها قارة ستغنى انجلترا غنى لا حد له .

وأخيرا تودد لهم أحد الأهالى ، وكان أقل جينا من رفاقه ، وعرض عليهم عروضاً للصدقة ، ثم تبعه آخرون ، ومن هؤلاء حصل كوك على معلومات قيمة عن النباتات والحيوانات ، ربما كان أعجب اكتشاف له هو أن القنغر (الكنجاو) حيوان يثب وثبات طويلة على رجليه الخلفيتين بدلا من أن يسير على أربع ، وكتب عنه جوزيف بانكس « لست أدري ما أستطيع أن أشبهه به ، ما دمت لم أر فى حياتى شيئا يشبهه » حقا ان هذه أرض المعجزات .

ولكن رغم شعور بحارة الأنديفور بالاثارة لأنهم أضافوا قارة جديدة الى عظمة دولتهم الا أنهم ملوا السفر واشتاقوا الى انجلترا . . وفى ظلام الليل فى باطن السفينة بدأت تسمع همسات العصيان - بخلع القبطان وضباطه - ولم يمر وقت طويل حتى انتقلت هذه الشائعات الى مقر قيادة السفينة فأزعجت العلماء وأقلقمت الضباط

ولكن قبطانهم كان هو نفسه يوما ما بين هؤلاء البحارة ، كم كان يفهم جيدا الروح التى تولد العصيان ! وكلما أسرعت السفينة فى الوصول الى جزر الهند الشرقية الهولندية كان ذلك أفضل .

ولكن حظ الأنديفور السعيد كان قد بدأ يأفل ويختفى ، فغاصت فى مصيدة كبيرة من الشعب البحرية مجهولة تماما لكل من أتى الى هذه المنطقة . هنا كان الحاجز الشعبى الاسترالى العظيم متاهة مرجانية تمتد ألف ميل حيث تغلى الأمواج على الصخور المغورة وتتقابل التيارات الخائنة فى صراع بحرى . وعلى هذا الحاجز المرجانى كانت تتحطم التيارات والأمواج الهائجة لمسافة فرسخ أو أكثر ، وبطريقة ما يجب أن يجد جيمس كوك وسط هذه المتاهة الخطيرة ممرا آمنا يخرج منه الى المحيط .

وخفقت الأشرع وكان هناك رجلان يلقيان بالثقالات كل نصف ساعة وأرسل قارب أمام السفينة ليجد ممرا لها ، وجلس المراقبون عند كل « قلع » شراع ولحسن الحظ كان الجو صحو ، والرياح هادئة ، ولكن هذا اليوم المحتوم لم ينسه أولئك الذين خبروه وجربوه . وغابت الشمس ، وظهر القمر بدرا مشرقا ، وتقدمت السفينة فى ببطء بطيء لا يزيد عن عقدة واحدة .

وكان الرجال فى المقدمة يغنون : « العلامة تشير الى اثنين وعشرين . . . العلامة تشير الى واحد وعشرين . . » واقترح هيكس بأمل : « ان الماء كثير تحتنا الآن يا سيدى » .

وأجابه كوك بهز رأسه ، ان احدى وعشرين قامة (١٢٧ قدما) شئ كثير ولكنه مع هذا كان يشعر بالقلق ، انه لن يتنفس الصعداء حتى يخرج من هذه المنطقة الشيطانية .



ثم غاصت « الأنديفور » في مصيدة كبيرة من الشعب المرجانية

وأصبحت النقلات تلقى الآن كل عشر دقائق ، وهى تقريبا السرعة التى يمكن بها انزالها واعادتها ثم سسمع الطنان يصيح : « العلامة تشير الى عشرين ٠٠ العلامة تشير الى سبعة عشر » ٠٠٠

ولم تكد الكلمات تخرج من فم هذا الرجل الذى يقيس الأعماق حتى حدث اصطدام عنيف وارتجت السفينة بشدة واهتزت كالحىوان المربوط ، وانطلق الرجال فى الحال الى ظهر السفينة وانخلعت غابية (١) القلاع التى فى مؤخر السفينة وألقت بالمراقب الى البحر ، فهب جيمس كوك لمساعدة الرجل الذى يدير الدفة ، وانتابه خوف مروع .

وسمع صوت صادر من أحد الأماكن : « آه يا الهى لقد انتهينا ! » ولم يتكلم أحد بعد ذلك . وعرف الجميع ، ما قد حدث ، ارتطمت السفينة بصخور ورست عليها ، بعد الصدمة الأولى العنيفة سكنت الأنديفور سكونا تاما غريبا ، ولم تكن هناك صخور مرجانية ظاهرة فى الميناء المظلمة التى يضيئها ضوء القمر الخافت ، ولكن صوت تشقق باطن السفينة الخشب رن رنين الجرس الذى يؤذن بالموت ، يجب ألا تضيع أية لحظة .

وخاطب كوك ضباطه بهدوء : « يجب أيها السادة تخفيف حمولة السفينة فورا . ألقوا بالمدافع والبراميل وجميع الثقافات الحديدية » .

— « نعم ، نعم » ياسيدى !

ما ان صدر الأمر حتى هب الرجال ينفذونه ؛ لأن جميع الأشهر التى مضت فى اطاعة الأوامر قد اعدتهم لهذه الساعة ، فألقوا بالمدافع الستة المتحركة الى الماء ، وأفرغوا براميل المياه ، وسحبوا جميع الثقافات من مصدرها فى قاع السفينة وألقيت الى الماء ، وأنزلت

الغابيات ، وحزمت بعضها مع بعض ، وألقى بها الى الماء حيث يمكن التقاطها ثانية لو أن الأنديفور أنقذت بمعجزة سماوية . وعمل الرجال في يأس صامت ولكن كلا منهم كان يفكر في قدره المحتوم ، وكانت الأرض الرئيسية على بعد عشرين ميلا ، واذا انشقت السفينة فجأة فلن يكون هناك من القوارب ما يكفي لنقل كل البحارة ولكن أولئك الذين سيغرقون سيكونون أسعد حظا من الأحياء الذين سيلقى بهم الى شاطئ همجى بدائي طويلة حياتهم .

ولما بدأ المد مالت السفينة المصدومة ميلا حادا ، وتدفق الماء الى باطن باطنها ، فعمل الرجال في ثلاث مضخات ، ولكن العمل كان مجهدا وشاقا بحيث ان الرجال لم يستطيعوا الاستمرار فيه أكثر من عشر دقائق ، ثم يلقون بأنفسهم على ظهر السفينة ، واستمر العمل على تخفيف حمولة السفينة ٥٠٠ وكان جيمس كوك موجودا في كل مكان ييث الحماسة فيمن وهنت قواه ، والتشجيع فيمن تخاذل وضعف ٥٠٠ ان هؤلاء الرجال الذين كانوا يفكرون في العصيان منذ أيام قلائل أصبحوا يستجيبون للأوامر في طاعة صادقة ، وظلوا يعملون ويجاهدون طوال ساعات تلك الليلة الرهيبة .

ولما انبثق فجر يوم ١١ من يونية استطاعت الأنديفور ، بعد أن ألقى عنها حوالى خمسين طنا من حمولتها ، أن تخلص نفسها من هذه الصخور ، ولكن الماء كان ما زال يتسرب اليها بشكل خطر ، فاستخدمت خطة بارعة لوقف هذا التسرب . ذلك أنهم أتوا بمجموعة من نسالة الجبال ، وحاکوها في قطعة خيش مربعة ، وربطوا في الخيش حبالا طويلة ثم وضعوا هذا الخيش تحت هيكل السفينة حيث جعلها امتصاص الماء الذي بالداخل تمسك بالسفينة ٥٠٠ ونجحت الخطة وسرعان ما أصبحت مضخة واحد كافية لجعل الماء الذي في قاع السفينة في مستوى آمن ، فأعيد انتشال الغابيات وأرسلت

الى أعلى الأشرع وبدأ الإبحار ، واستجابت السفينة استجابة ضعيفة للدفة لأنها كانت نصف مليئة بالماء وتوجهت تبحث عن ملاذ فى اليابسة .

وأرسل قارب أمام السفينة ليبحث عن مكان على الساحل يمكن أن تؤخذ فيه السفينة الى الشاطئ وتستصلح ، وسرعان ما وجد هذا المكان ، وبعد ثمان وأربعين ساعة من اصطدامها بالصخور سحبت السفينة على ضفة نهر منحدره حتى يأتى وقت الجزر فيتركها جافة عالية على الشاطئ وبسرعة أصلح الرجال ما أصابها من تلف ٠٠٠ كان الغلاف (الحشب الخارجى الذى يقى هيكل السفينة نفسه) قد تمزق فى مساحات كبيرة حين قفزت السفينة على الصخور ، وثقبت كتلة ضخمة من الشعب المرجانية أرضية السفينة الخشبية ، وتركت ثقباً كبيراً جداً ، ولحسن الحظ أن المرجان ثقبها وركز فى الثقب ، ولو أنه خرج من هذا الثقب فى أية لحظة لغرقت السفينة فى الحال كما تفرق كتلة من الحديد ألقيت فى الماء ، ولما عرف العالم مصير مشروع جيمس كوك .

وعلى ضفاف ذلك النهر الذى أطلق عليه جيمس كوك اسم « نهر الأنديفور » بدأ العمل الضخم فى إصلاح السفينة ، ونصبت الخيام على الشاطئ حيث أقام الحداد مصهره وبدأ يصنع مسامير من قطع الحديد البالية ، وأسقطت أشجار جديدة ونشرت وصفت الواحها ٠٠٠ ولكن مثونة الطعام بدأت تقل فخرجت جماعات من الرجال لصيد الحيوانات والأسماك ، وكان هناك دائماً الزنوج الاستراليون المتسللون . يحومون حولهم من بعيد ويثيرون أعصابهم ، لأنهم جميعا يعرفون أنه لو هاجمهم هؤلاء المواطنون بقوة لتغلبوا على رجال كوك الذين كانوا قد ألقوا بأغلب مدافع السفينة الى الماء .

ومرت ستة أسابيع مضية قبل أن تستعد الأنديفور ثانية للابحار ، ولكن حتى فى لحظة الانتصار هذه تعرضت السفينة وحياء الرجال لحظر داهم فقد نمت على ضفتى النهر مساحات كبيرة من الأعشاب ، أعشاب جافة جدا . وكان الأهالى ينتظرون الوقت المناسب حين تهب ريح ملائمة ، ولما هبت الريح أشعلوا النيران فى الأعشاب ، واجتاح اللهب معسكر كوك . ولحسن الحظ كان هناك مد عال فحمل الماء الأنديفور الى الأمان ولكن تحطمت أغلب المعدات التى كانت على الشاطئ وانتشرت النار فى سرعة مذهلة الى الداخل متجهة نحو سفح الجبال حتى بدا وكأن العالم كله يحترق .

ونظر الجميع الى نهر الأنديفور يغمرهم شعور عميق بالارتياح ، فى حين أبحرت السفينة ببطء مع التيار ، حتى لقد بدت مشكلة ايجاد مخرج من الحاجز الشعبى العظيم هينة سهلة ، وفى هذه المرة ابتسم لهم الحظ بعد أن امتحنهم بتلك التجربة القاسية ، وبعد أن

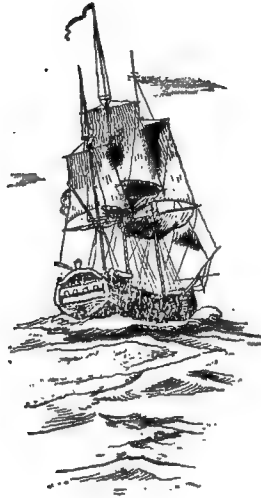


مرت عشرة أيام ، في ابحار فنى ماهر وقياس للأعماق كل خمس دقائق ، وصلت السفينة أخيرا الى مياه المحيط الزرقاء العميقة ، وسجد الرجال شكرا لله حين تحققوا من أنهم أصبحوا فى أمان ٠٠٠ ولو مؤقتا ٠٠٠ واغرورقت أعين بعض الرجال بالدموع لهذه الرحمة السماوية الواسعة . أما جيمس كوك فقد شعر بالوهن لأول مرة يدب فى عظامه .

وأصبح الطريق الى جاوة مفتوحا أمامهم ، ولكن ظلت هناك مضخة تعمل ليل نهار دون توقف ؛ لأن الأمواج الشديدة كانت ترتطم بالسفينة القديمة ، وتفتح جراحها .

* * *

واعتبر بحارة الأنديفور باتافيا صوزة من الجنة ، لأن هؤلاء الرجال استطاعوا مرة ثانية أن يسمعوا حديثا مثل حديثهم ويأكلوا طعاما كانوا يحلمون به ، ويعرفوا أخبار العالم العظيم الذى كانوا قد تركوه منذ أمد بعيد ٠٠٠ والشئ الذى كانوا يجهلونه هو أن جاوة فى ذلك الوقت كانت منطقة من العن المناطق المميتة وأشدّها خطرا ، لأن الملايا كانت تكمن فى مياهها الراقدة ، وفى قنواتها المليئة بالمستنقعات ٠٠٠ وما ان انقضى أسبوعان حتى سقط ثلاثة أرباع البحارة يعانون المرض الشديد ، ومات سبعة منهم ، وأصيب جوزيف بانكس والدكتور سولاندر ولكنهما أنقذا نفسيهما بأن ذهبا بعض الوقت الى التلال التى تعلو المدينة وأخيرا أصيب جيمس كوك نفسه بهذا المرض المخيف ، فهزت الرعشات جسده العظيم وألهبته الحمى . ولكنه مع هذا أشرف بنفسه على سير العمل فى إعادة اصلاح السفينة دون توقف ، وكأنه يعمل فى غيبوبة ، وأصلح الهيكل والحبال ، ورفعت أشرع جديدة ، وملئت المخازن بالمواد الغضة « الطازجة » وملئت البراميل بالمياه .



وعلى أى حال لما جاء يوم الإبحار كان أربعون رجلا من رجال
رجال السفينة فى حالة من المرض لا تسمح لهم بالقيام بأعمال البحر،
أما الآخرون فيجب أن يستعيدوا قواهم كى يضاعفوا عملهم فى
السفينة ، رغم أن المرض كان قد أضناهم ٠٠٠ وسارت السفينة نحو
رأس الرجاء الصالح فى طرف أفريقيا الجنوبي ، وكانت هذه الرحلة
الطويلة بمثابة سباق مع الموت ٠٠٠ فكان الملازم هيكس ، أول من
رأى أستراليا هو أول ضحية ، وفتحت الأمواج فمها كى تستقبل
مراقب السفينة حين مات ، ثم تبعه البحار ، وعريف الجنود البحريين
وثلاثة ضباط صف بحريين . ولم يمر يوم واحد دون أن يلقى فى

البحر جسد أو أكلر ، وفى وقت من الأوقات لم يكن هناك
الا اثنا عشر رجلا يعملون .

لقد حز فى نفس جيمس كوك أن يرى بحارته المهرة الممتازين
يموتون هكذا ٠٠٠ هؤلاء الرجال الذين قادهم وراقبهم وعرفهم خلال
الأشهر الطويلة التى مرت منذ ترك انجلترا ، لقد بدا وكأن وبالا
قد نزل على مشروعه العظيم فأذبل ثمرة كشفه ، وأحال طعم النصر
مرا لا يطاق ٠٠٠ ولما وصلوا أخيرا الى خليج تيبل كان عدد الموتى
قد ارتفع الى ثمانية وثلاثين ، وزحفت الأنديفور الى المرسى وكانها
شبح سفينة قد انتهت .

وأمدت السفينة فى المستعمرة الهولندية بأيد عاملة جديدة ،
ثم استأنفت رحلتها الشاقة مرة أخرى . وكان كوك نفسه قد أصبح
شبحا نحिला للرجل الذى ودع زوجته ، منذ أمد ٠٠٠ أمد بعيد وكأنه
دهر . أما سترته التى ذبلت وتمزقت فكانت معلقة على جسمه
النحيل البالى ، وأما ضباطه ، ورجاله ، فبدوا وكأنهم « خيالات
ماتة » ، لا يرتدون الا خرقا بالية ، وقد أصبح المنظر الرتيب المزعج
للبحر والسماء كابوسا مخيفا على مر الأيام ، بينما جرت أسابيع
مايو. نفسها جرا ، ليأتى يونية ٠٠٠ ثم أتى يولية وفجأة اجتاحت
السفينة حمى جديدة ، انها هذه المرة حمى الملل والانتظار ، لقد
كانت انجلترا تقع فى مكان ما وراء هذه الفراسخ التى لا تنتهى من
المحيط رغم أنها لم تكن بعيدة لهذا الحد .

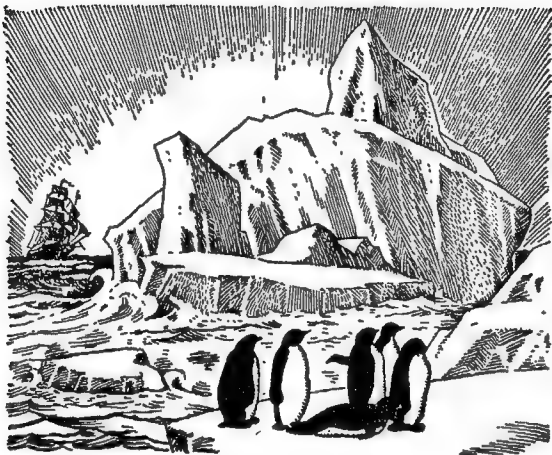
« هيه اليابسة !! اليابسة ، اليابسة ، هيه ٠٠٠ هيه ! »

وصعدت هذه الصيحة عاليا مرة ثانية ، وتزاحم الرجال على
ظهر السفينة وبدأوا يحملقون فى سكون وأعينهم مغرورة بالدموع
وهم يرون أرض الوطن العزيزة عن بعد . وخفق قلب جيمس كوك

للمنزل الذى فى طريق مايل اند وللفتاة التى انتظرت هناك فى نقّة
وصبر وللطفل الذى لم يره قط .

ولكنه سيطر على صوته ، وهو يستدير الى ضابطه الأول
ويقول : « افرد جميع الأشرع التى تحملها السفينة أيها الملازم ،
وارفع الرايات على جميع القلاع ٠٠٠ هذه سفينة ملكية ، ولن نعود
الى الوطن زاحفين ! »

ولم تستمر هذه الرحلة سوى ثلاثة أعوام عدا ستة عشر يوما
فقط .



الفصل الثامن

القارة المفقودة

واشتهر جيمس كوك شهرة واسعة ، وانتشر نبأ ما حققه من انتصارات علمية في جميع أنحاء إنجلترا ، ودهش لوردات البحرية (الأدميرالية) لدقة خرائطه ومذكراته ، ولم يفتهم أن جيمس كوك حافظ على سلامة صحة رجاله حتى وصل الى جاوة ، وهذا ما لم يحدث من قبل ، ولم تحدث حالة وفاة واحدة بمرض الأسقربوط ! زد على

ذلك أن كوك أحضر معه الى جانب خرائطه ، وقصص الكنغر والقبائل المتأخرة والذلىء - أحضر معه امبراطورية كبيرة .

ورقى الملازم كوك فوراً الى رتبة قومندان وشعرت اليزابيث بالفخر ، لما حصل عليه زوجها ولو أنه فخر ليس تاماً ، لأنها كانت تعرف أن زوجها يأمل أن يصبح قبطاناً ولكنها كانت تعرف أيضاً قواعد الأقدمية القاسية التى فى الأسطول . . . على أى حال لقد أصبحت الشخصيات الهامة تسعى الى زوجها هذا ، واستقبله الوزراء . . . وفى قرية يوركشاير التى تدعى جريت آيتون كان هناك رجل يتذكر ابنه الذى ذهب الى البحر بفرح وفخر . . .

وعلى أى حال ، لا يمكن أن يترك القائد مدة طويلة يتمتع بالراحة فى بيته تحت رعاية زوجته الرقيقة أو مع ابنه الذى تعلق بأبيه المشهور تعلقاً شديداً لأن الكسندر دالريمبل ذلك الرجل الأسكتلندى الخيالى (أكبر صانعى الخرائط فى البحرية الملكية وعدو قديم لجيمس كوك) فحص الخرائط الجديدة . . . وكان نجاح جيمس كوك يعد شوكة فى جانب دالريمبل . لهذا فقد قال بكبرياء ان جيمس كوك لم يكتشف المحيط الباسيفيكي اكتشافاً كافياً يمكنه من انكار وجود قارة عظيمة فى الجنوب ، وفى رأى دالريمبل العنيد أن مثل هذه القارة موجودة فعلاً وأن كوك ما هو الا محتال ماهر مزور للمناظر وأماكن سبر أغوار البحر .

وسرعان ما جذبت هذه الفكرة انتباه الجمهور الخيالى المتقلب ، كيف يكون هذا ؟ لقد عرف الجميع أن هناك أنهاراً من ذهب تنساب فى القارة الجنوبية العظيمة التى يعد سكانها الخمسون مليوناً من عنصر أرقى . . . ان الدولة التى تكتشف مثل هذه القارة وتحصل عليها ستصبح سيادة العالم . . . وفجأة تذكر الناس أن كوك ليس سوى ابن فلاح وربما لم يكن بطلاً عظيماً كما اعتقدوا .

وبدأ القلق يعتري لورد ساندويتش ، أعلى لورد فى سلاح البحرية (الأدميرالية) ، لم يكن متأكدا من نظرية دالريمبل تأكدا كبيرا ولكن انجلترا ستصبح أضحوكة فى العالم لو أن دولة أخرى اكتشفت هذه القارة المجهولة وامتلكتها ، وفى الواقع أن كوك لم يثبت عدم وجود مثل هذه القارة وانما فشل فقط فى العثور عليها ووضع الملك جورج نفسه حدا لهذه المسألة . . اما أن يكون جيمس كوك مخطئا ، واما أن يكون دالريمبل هو المخطئ لهذا يجب أن تجهز بعثة أخرى فى الحال وتستعد لاجلاء الأمر ويجب أن يثبت كوك أنه يستحق الترقية الجديدة .

وأُنصت كوك الى هذه الشائعات دون أن يتأثر ، وعرف أنه قد بذل قصارى جهده ، ومع هذا فان بشائر الرحلة الأخرى لم تضايقه ، لأنه كان قد بدأ يشعر بالملل بين هؤلاء القوم الذين على اليابسة ، ورغم أنه كان يحب أسرته حبا جما ، الا أن الحنين الى البحر كان يسرى فى عروقه . وبدا فى مخيلته نجيل تاهيتى الجميل ، وهو يتراقص لهبات النسيم وقم نيوزيلندا المغطاة بالجليد الذى يتلأأ فى ضوء الشمس ما زالت أنشودة البحر ترن فى أذنه كما كان يسمعها فى المحارة التى كانت معه فى طفولته .

وأصر على أن تتكون البعثة الثانية من سفينتين بدلا من واحدة وذهب مرة ثانية الى أحواض هويتبى فوجد سفينتين بنيتا على طراز ناقلات الفحم القوية ، فسمى احدهما « رزوليوشن » ، وسمى الأخرى ، « ادفنشار » ، وتولى هو قيادة الأولى ، أما الثانية فقد أعطيت قيادتها لضابط بحرى ممتاز يدعى الملازم فيرنو ، ومونت السفينتان استعدادا لرحلة تستمر عامين ونصف عام وابتسم فيرنو بلطف حين عرف الاحتياطات التى يتخذها كوك ضد مرض الاسقربوط ،

وقال انه لا يمكن أن يحمل سفينة بشحنة من الكرب. المخلل ٠٠٠
وبعد ذلك بشهور كان يندم على حماقته هذه .

وطلب رجال كثيرون ممن عملوا على سفينة الأنديفور أن يعملوا
مع نفس القائد الذى أعجبوا به كثيرا ، وسيكون تحت امرة كوك هذه
المرّة ١١٢ ما بين ضباط وبحارة وكان على سفينته القوية هذه
أربعة وعشرون مدفعا ، أما سفينة « المغامرة » فقد حملت
واحدا وثمانين رجلا وعشرين مدفعا ، كما حملوا معهم ماعزا وأغناما
وخنازير وطيورا ، واتفقوا على أن يتركوا ما يبقى حيا من هذه
الحيوانات مع أهالى بحار الجنوب ، واختيرت مجموعة جديدة من
العلماء . كما رافقهم رسام شهير كى يرسم « صورا » لكل شيء
لا يستطيع الرحالة أن يصفوه وصفا كافيا ، وصدرت أوامر البحرية
(الأدميرالية) بأن تدخل هاتان السفينتان كل ركن من أركان المحيط
الباسفيكى الجنوبى لم يفحص حتى الآن ، حتى تتقرر مسألة وجود
قارة جنوبية .

وفى ٢١ من يونية ١٧٧٢ كان كل شيء معدا ، وودع جيمس
كوك أسرته ، وبذلت اليزابيث قصارى جهدها كى تحبس الدموع
فى مقلتيها ، ضمها زوجها فى حب ، ثم ضم ابنه الصغير الذى كان
يجبه حبا عميقا ، الى صدره لحظة ! وأمسك الولد الصغير بطيات
سترة والده الرسمية الأنيقة وقال فى صوت رقيق مستعظفا أباه :
« انك ذات يوم ستأخذنى أنا أيضا ، أليس كذلك يا والدى ؟ »

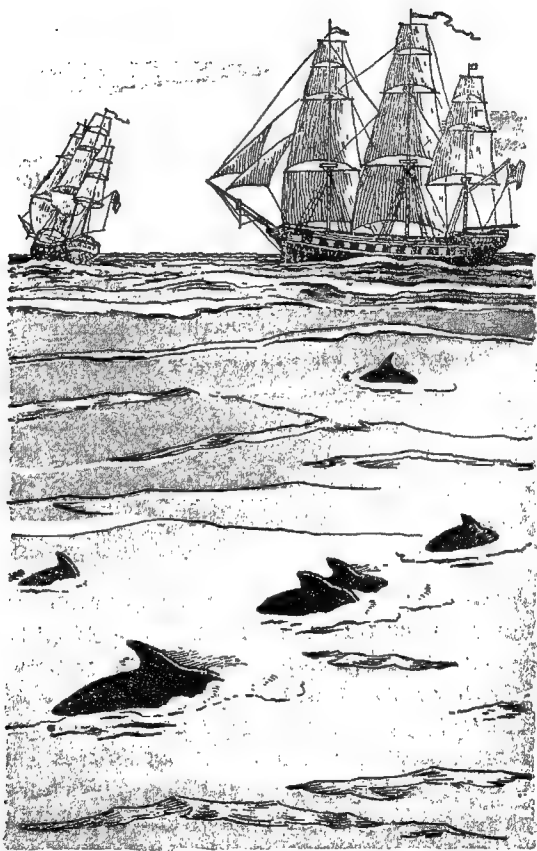
— « من المؤكد يا ولدى ، سيكون ذلك ذات يوم » وعد الرجل
ابنه وهو يعنى كل كلمة يقولها : « ولكنك يجب أن تكبر وتقوى حتى
تستطيع أن تشد الأشرع ، وفى نفس الوقت يجب أن تعتنى بأمك
حتى أعود » .

وبدأت السفينتان رحلتهما والريخ هادئة ، واتجهتا نحو رأس الرجاء الصالح ، وهناك ، بعد ذلك بثلاثة أشهر ونصف شهر أخبرهم حاكم المستعمرة الهولندية أن هناك سفينة فرنسية وصلت الى هذا الميناء حديثا وهى تستهدف اكتشاف تلك القارة العظيمة ، وهكذا بدأ السباق .

ولما اتجهت السفينتان جنوبا ازداد البرد ، وآمد الضباب والجناد على السواء ، بدلابس صوفية تعلوها سترات قصيرة تعرف باسم « فيرنوت » ولكنه كان من المستحيل أن تحتفظ لهم بالدفع والجفاف وكان مصدر الحرارة الوحيد فى كلتا السفينتين هو موقد السفينة ، والانسان لا يستطيع أن يجد الراحة الا فى الدفء الذى بداخل بدنه ، وهلك عدد كبير من الحيوانات الموضوعة فى حظائر فى مقدمة غرفة البحارة بسبب تعرضها للريخ الجليدية الباردة ، وتحول المطر الى شفقشاف ثم الى جليد عنيف غزير ، وتجمدت الأشرع وكأنها ألواح معدنية وأخذ البحارة يدقون عليها بقبضات دامية .

ولما اقتربت السفينتان من المنطقة القطبية بدت لهم من بين الضباب والجليد جبال ثلجية ، وفى بعض الأحيان كانوا يفزعون اذ يفاجأون بها قريبة جدا منهم ، وقدر الرجال أحدها فكأن ارتفاعه حوالى مائة قدم وجدرانه كانت تشبه الصخرة الصلبة التى ترتطم عليها الأمواج ، وكان هذا الجبل الثلجى قريبا جدا لدرجة أن السفينة تدور بعيدا عنه وتتلافاه ، وكانت فرصتهم الوحيدة هى أن يغيروا اتجاه السفينة نحو الريخ بقدر الامكان ، ومرت لحظات من الشك الرهيب ، فى حين تلافى « القرار » الجبل الثلجى بأقل من خمسين قدما .

وكان الجليد مغطى بالطيور وكأنها رجال صغار يرتدون سترات سوداء وبيضاء ، وهى أول بطاريق رآها الانسان ، وكانت هناك



واخذت الحيتان تقفز حول السفينتين الوحيدتين

حيتان ضخمة تقفز حول السفينة مصدرة صيحاتها الحزينة ، انه منظر وحشى مخيف جعل الجميع ينغمسون فى اليأس ، وجعل هؤلاء الرجال أنفسهم الذين رجوا وألحوا فى الرجاء كى ينالوا ميزة الإبحار مع الملاح العظيم كابتن كوك يندبون حظهم ويتساءلون : أى نوع من الرجال هذا الكابتن كوك : عبقرى أو مجنون ؟ أما عن كوك فقد ظل يحبس نفسه وتفرغ للقيادة وصمم على ألا يعود حتى يخلص الناس الى الأبد من خرافة القارة الجنوبية العظيمة .

وأصبحت الحاجة الى ماء الشرب ملحة ، ولحسن الحظ اكتشفوا أن جليد البحر حين يذاب يصبح ماء عذبا ، فأمر كوك بأن تذهب القوارب لإحضار الجليد ٠٠٠ وسرعان ما تجمع لديه خمسة عشر طنا من الجليد ، وفى يوم رأس السنة أعلن المراقب الذى على رأس الصارى أنه يرى أكثر من مائة جزيرة ثلجية ، وأن بعضها يبلغ طوله نصف ميل ، والباقى لا يقل طوله عن طول السفينة ٠٠٠ وكان البحارة قد ادخروا طعامهم الشهى للاحتفال بهذا اليوم ٠٠٠ يوم رأس السنة ، ولكنه كان احتفالا حزينا .

وفى ١٧ من يناير ١٧٧٣ عبرت المنطقة الجنوبية المتجمدة لأول مرة فى التاريخ وهنا دوت عاصفة عنيفة للغاية فانفصلت السفينتان احدهما عن الأخرى ، وظل كوك يبحث عن السفينة الأخرى ثلاثة أيام جيئة وذهابا ، بين كتل الجليد الطافية ، وأضيئت الأنوار أثناء الليل وأطلقت المدافع على فترات منتظمة خلال النهار ولكن «ادفنشار» كانت قد اختفت كلية وكان المحيط قد انشق وابتلعها ، وهذا هو ما ظنه الكثيرون وشعر قبطان « رزولوشن » ببعض الراحة لأنه كان قد توقع أن يحدث مثل هذا الافتراق فاتفق مع قبطان «ادفنشار» على أنه لو حدث هذا فانهم يلتقون فى مضيق الملكة شارلوت فى نيوزيلندا .

وزاد اختفاء « المغامرة » من شعور بحارة « القرار » باليأس العميق لأنهم لم يشعروا بهذه الكآبة المتناهية حين كانت ترافقهم سفينة أخرى ٠٠٠ وكتل الجليد هذه التى تمتد شرقا وغربا الى ما لا نهاية ، والسفينة تنجو بين الفينة والفينة من هلاك مؤكد فى آخر لحظة ٠٠٠ ومما زاد الأمر سوءا أنهم عرفوا أنهم فى فصل الصيف ٠٠٠ كيف اذن تكون الحال فى الشتاء ؟

ونظر الضباط البحارة الى قبطانهم بقلق ، ولكن لم يجرؤ أحد على أن يفتحه فيما كان يدور بخلد الجميع ٠٠٠ متى يعودون ؟ ولكن كوك لم يكن بالشخص الذى يتراجع بسهولة فرغم الزوابع والبحار الهائجة استمرت « القرار » شهرا آخر تسير فى اتجاهها نحو الشرق فى خط عرض ٥٦٠ جنوبا .

وفى ليلة السابع عشر من فبراير كانت السماء مضاءة بحزمة ضوئية عريضة غريبة - حلزونات ملونة غمرت البحر والجليد بوهج مرعب .

ها هو ذا الشفق الجنوبى المقابل للفقير القطبى فى الشمال ، ولكن البحارة الذين يؤمنون بالحرفات لم يروا فى هذا الوهج الا تأكيدا لمصيرهم المحتوم .

وعند خط عرض ٥١٥ ، ٥٦٧ أصبح من الواضح أنه لا يمكن التغلغل فى هذه الحقول الجليدية ، التى لاتنتهى ، ولم تبهر سفينة من قبل الى هذا المكان فى الجنوب ، هكذا أصبح من المؤكد أن نظرية دالريمبل عن وجود قارة جنوبية قد تبخرت ، وأخيرا أصدر جيمس كوك الأمر الذى طالما ترقبه البحارة وهو الاتجاه نحو الشمال ، فهب البحارة يلبون هذا الأمر ٠٠٠ لقد مضى على ابحارهم ١١٧ يوما كاملة

وقطعوا مسافة ٣٥٠٠ ميل فى المحيط دون أن يروا أى أرض ولو مرة واحدة .

وبدت نيوزيلندا عالية فى الأفق ، جميلة وضاءة وكأنها حلم ، ورسيت « المغامرة » بأمان فى مضيق الملكة شارلوت ، ولكن كان اثنان من رجالها قد ماتا بمرض الأسقربوط ، وكانت خمسة عشر آخرون فى حالة مرض شديد ، وبدأت صحة هؤلاء المرضى تتحسن على أكل الفاكهة والخضروات وأصبح الملازم فيرنو الذى سخر من جيمس كوك فى بداية الرحلة واعتبره لايهتم الا بالأكل يتبع نفس فكرته .

وأنزلت الحيوانات التى ظلت حية بعد ما عانتها فى المنطقة القطبية الجنوبية الى الشاطئ . ولم تكن سوى بعض الأغنام القليلة وعدد من الخنازير . وكان الهدف من هذا أنه اذا قرر الانجليز فى يوم من الأيام أن يستعمروا هذه الأرض فانهم سيجدون حيوانات أليفة تنتظرهم ، وغرسوا الجزر والبطاطس واللفت ، والجزر الأبيض أيضا ، وأفهموا أصدقاءهم المورين الذين فى المنطقة كيف يرعون هذه الأشياء .

ثم أبحرت السفينتان متجهتين الى الشمال فى شبه نزهة بحرية ورسنا فترة قصيرة فى تاهيتى وأخذتا الحشب والماء اللازمين وقام الملك توتاهما العجوز ورفاقه باكرام الضباط بينما عانق الأهالى البحارة فى نفس الوقت الذى سرقوا فيه بعض ما كانوا يحملون .

واكتشفت فى غرب تاهيتى سلسلة من الجزر تزيد على مائة جزيرة ، ويسكنها جنس ودود أنيق ، وقد أسماها كوك فى الحال « الجزر الودودة » . ثم أبحرت السفينتان فى دائرة واسعة فى المحيط الباسيفيكي ، ووصلتا الى « جزر الماركيسا » التى لم يكن قد تحدد مكانها بعد على أية خريطة ثم اتجهوا ثانية نحو الجنوب الى

« جزيرة ايستر » حيث التماثيل الحجرية ، الضخمة متراسة على الشاطئ تسخر من كل من يحاول أن يكتشف سر وجودها . . . وكانت هذه الدولة فقيرة ، والماء رديئا ، والسكان القلائل – الذين يعيشون في ظل هذه التماثيل الغريبة السوداء – ليس لديهم من الطعام ما يمكن أن يقدموه .

ورفع المرسى وأبحرت السفينة مرة أخرى ، وأينما أبحر جيمس كوك كان يضيف اكتشافاته الجديدة الى خرائط المحيط الباسيفيكي ، ومن بين هذه الاكتشافات « جزيرة نورفولك » و « كاليدونيا الجديدة » ووجد كوك أن الجزيرة الأخيرة هي أكبر جزر المحيط الباسيفيكي الموجودة في هذه المنطقة ، كما اكتشف عددا كبيرا من الجزر الأصغر نسماها ورسمها على الخرائط .

ولكن شبح قارة داريمبل المفقودة كان يطارد جيمس كوك وقرر ألا يعود من بحنه الا بعد أن يبذل محاولة أخيرة في المياه الجليدية التي في جنوب نيوزيلندا ، وهكذا تأرجحت السفينتان وغاصتا أسابيع طويلة وسط البحار العاصفة التي تمتد في منتصف الطريق الى أمريكا الجنوبية ، وهنا اختفت « المغامرة » مرة أخرى ، ومرة أخرى لم تكن هناك اجابة على اشارات « القرار » ، ترى هل غرقت بين الزوابع الغربية العنيفة السائدة التي يعرفها البحارة باسم « الأربعينات الزائرة » ؟ سوف تمر عدة أشهر قبل أن تعرف اجابة هذا السؤال . . .

ثم حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد مرض جيمس كوك ، وهو الآن في السادسة والأربعين من عمره ، وقد قضى معظم هذه السنوات في حياة شاقة قاسية حتى أصبح جسمه النحيل ، مثل خشب البلوط الذي في السفينة ، عصفت به الرياح وهدمته الأمواج ،

ولم يعد ينام الا نوما خاطفا ، ولم يستطع أن يحافظ لا على الطعام ، ولا على الدواء . وأشرف على الموت ، ويئس المستر باتن جراح السفينة من انقاذ حياته ولم يصدق بحارة « القرار » ولا ضباطها أن الرجل الذى أطاعوه ولعنوه وأحبوه قد يموت ، وأخذوا يقومون بعملهم فى صمت رهيب وكأنهم اشباح تتحرك . . . وفرح الجميع فرحة كبيرة يوم جاءهم باتن وقال « لقد تحسنت صحته اليوم فليباركه الله » .

* * *

ونفذت أوامر الأدميرالية على أحسن وجه ، فلم تكن هناك سفينة قط أبحرت أبعد ، أو خاطرت أكثر ، من هذه السفينة . . . وحان الوقت للتفكير فى الوطن وتحسنت صحة جيمس كوك سريعا ، وقرر أن يعود عن طريق رأس الرجاء الصالح الذى لم تكن خرائطه قد أتقنت ، فأراد أن يصححها ! ورغم الطقس الرديء ، وممل رجاله وقلقهم الشديد ، مسح جيمس كوك المنطقة بأكملها قبل أن يبدأ رحلته الطويلة عائدا الى الوطن عبر الأطلنطي .

وأخيرا لما رأى المراقب تلال بلايموث كانت « القرار » قد ابحرت لمدة ثلاثة أعوام وستة عشر يوما ، واكتشفت مساحات بحرية تبلغ ٢٠٠٠ فرسخ ، ولم تفقد الا أربعة رجال ، ولم يمت منها أى شخص بداء الاسقربوط ، أما « المغامرة » فقد عادت الى الوطن قبل ذلك بسنة بعد أن كانت قد تهدمت .

وكان آخر ما كتبه جيمس كوك فى مذكراته :

« لقد أبحرت حول المحيط الجنوبى فى خط عرض بعيد وجبته بطريقة دقيقة حتى لا أدع مجالا لاحتمال

وجود أية قارة الا أن تكون بالقرب من القطب وهذه
منطقة أبعد من أن يصل اليها ملاح وان فى هذا الكفاية
لاسكندر دالريمبل ٠٠٠

واستمتع كوك مرة أخرى بالهدوء والراحة بجوار أسرته ولكن
حدث ذات يوم أن ظهر رسول فى طريق مايل اند يحمل رسالة
مطوية ومختومة بخاتم رسمى • انها براءة جيمس كوك التى تمنحه
رتبة « كابتن » فى البحرية الملكية وكانت البراءة تحمل خاتم وتوقيع
جلالة الملك جورج الثالث ٠٠٠ وعلاوة على هذا استدعى جيمس كوك
لمقابلة الملك فى قصر سان جيمس •

وظل كوك لحظة فى دهشة لا يكاد يصدق كل هذه الحقيقة
القياسة ووقفت اليزابيث الى جواره لا تتكلم ، ونظرت عاليا الى
الرجل الطويل النحيف الذى من يوركشاير بأفنه الشامخ وجبهته
الرقيقة وخده الأسمر الذى لفحته شمس البحار السبعة وريحها ،
هذا الرجل هو زوجها ، وربما حدثت شيئا مما يدور بخلده لأنها
امراة حكيمة •

انه كان يتذكر حقول جريت آيتون حيث عمل الى جانب والده
٠٠٠ ويذكر الصبى الذى كان يرتدى سروال الركوب فى ذلك
الصباح حين ترك الوادى الذى ولد فيه وأمه تتعلق به وتهمس
« ليحفظك الله يابنى ويعذك الينا سالما » • والسنين التى قضاها وحيدا
٠٠٠ لقد كان كل هذا سبيلا الى هذه الغاية ٠٠٠ أن يصبح هو ،
جيمس كوك ، ابن الفلاح « كابتن » فى البحرية الملكية •

وسأل كوك المرأة التى كانت تمسك بذراعه : « أحقا أستحق
هذا التشريف من جلالتة ؟ »

وجاءت اجابة اليزابيث سريعة مؤكدة « تستحقه ؟ لم يفعل أحد لانجلترا أكثر مما فعلت أنت ، لقد ولدت قبطانا » .

والتفت كوك اليها وعيناه الزرقاوان ملتفتان ، وشسفتاه رقيقتان ، وقال : « ان البحار الناجح يكون زوجا فاشلا يا اليزابيث » .

فأجابته قائلة : « الا زوجي » وأمالت رأسها الى رأسه .



الفصل التاسع

الشاطئ والبعيد

وقبع الكسندر دالريمبل فى صمت عنيد • لقد انقضى يومه ،
لأن جيمس كوك عاد هذه المرة عودة البطل الذى أصبح اسمه
وانتصاراته على كل لسان فى اسبانيا وهولندا وفرنسا وروسيا ، اذ
اعترف الجميع بأعجاز أعظم ملاح عرفه العالم •

واقتضت الجمعية الملكية - تلك الهيئة المهيبة ! - انتخابت جيمس كوك باجماع الآراء عضوا فيها وقرأ ذلك الصبي نفسه - الذى كان فيما مضى يعمل فى حوض هويتبى للسفن - قرأ بنفسه بحثه الذى أعده عن الطرق التى استخدمها فى وقاية صحة بحارته ، أثناء الرحلة التى دامت ثلاث سنوات ، وفى نهاية العام أكسبه بحثه هذا وسام سير جودفرى كوبلى الذهبى وهذا أعظم تشريف فى انجلترا للعمل التجريبي .

ودوى التصفيق حين نادى رئيس الجمعية الملكية باسم الكابتن كوك كى يتسلم الوسام ، ولكنهم فوجئوا بأمرأة شابة نحيلة تنهض لتتسلم الوسام ، لقد أتت اليزابيث كوك وحدها كى تنال الشرف بالنيابة عن زوجها . أما كوك فكان قد رحل ليكتشف عوالم جديدة .

بدأت رحلة كوك الثالثة والأخيرة بهذه الطريقة : « لقد ظل الملاحون قرنين كاملين يبحثون عن طريق أقصر يربط المحيط الأطلنطى بالمحيط الباسيفيكي لأنه اذا أمكن اكتشاف مثل هذا الطريق على الساحل الشمالى الغربى لأمريكا فان تجارة انجلترا مع دول الشرق الأقصى ستكون أسرع بكثير . »

فقدم الملك جورج جائزة قدرها ٢٠.٠٠٠ جنيهه للملاح الانجليزى الذى يكتشف مثل هذا الطريق القصير . ولم تكن هذه الفكرة حديثة ، لأن سير فرانسيس دريك وهنرى هيدسون وجاك كارتيه ، كل هؤلاء كانوا يفكرون فى امكان ايجاد طريق شمالى شرقى وألهبت هذه الفكرة جيمس كوك بما كان له من عقل يحلق فى الذرى .

واقترح كبير اللوردات فى البحرية (الأدميرالية) أن يقوموا بمحاولة جديدة فى بحار أمريكا الشمالية . . . وفكر لورد ساندويتش

فى الرجل الوحيد الذى يمكن أن يقود مثل هذه البعثة : الكابتن جيمس كوك ، ولكنه تردد فى تقديم مثل هذا الاقتراح لرجل عاد لتوه من رحلة طويلة شاقة خطيرة لأن كوك يجب أن يترك لينضم الى أسرته ويعيش معها فى سلام . . . ومع هذا فقد دعا لورد ساندويتش الملاح الشهير الى تناول العشاء فى احدى الأمسيات مع سير هيو بوليزر . وهنا اجتمع ثلاثة أصدقاء قدامى مجربين بعضهم مع بعض .

ولما دار الحديث حول الممر الشمالى الغربى استدار كبير لوردات البحرية الى جيمس كوك وقال : « انك أنت يا صديقى العزيز الذى تستطيع أن تعطينى رأيا أصوب من أى رأى آخر . من ذا الذى ترشحه ليكون قائدا لمثل هذه البعثة ؟ »

ولم يتردد كوك فى اجابته لحظة : « هو أنا يا سيادة اللورد » .

وابتسم سير هيو ومضيفه . . . ان انجلترا يجب ألا تخاف على عظمتها لأن أحسن بحاريها يستعد للبحار مرة أخرى .

وفى ١٠ من فبراير ١٧٧٦ صدق الملك على تعيين كوك .

* * *

وباح البحار العظيم بخبر الرحلة الى زوجته الحبيبة ووافقت اليزابيث على الأمر بشجاعة ، رغم أنها كانت كأتى امرأة أخرى كثيرا ما تحلم ببيت هادى تعيش فيه هى وزوجها جنبا الى جنب يريعيان ابنيهما حتى يكبرا . . . لقد تركت السنون الطويلة التى قضتها فى الانتظار أثرها فى وجه اليزابيث ، وفى التجمعات التى حول فمها والشعيرات البيضاء التى ظهرت فى شعرها الأسود ، ولكن عينيها كان لا يزال فيهما حيوية تلك الفتاة ، التى واجهت نفس هذا الرجل

منذ أمد بعيد فى مسكنه المتواضع غير المنسق فى شادويل ، الفتاة التى قالت : « يا لعظمة أن تقوم بمثل هذه الأشياء ! لابد أننا جميعا نبدو فى نظرك بلهاء » .

واستدارت اليزابيث ، المرأة ، الى زوجها ووضعت يدها فوق ذراعه وقالت بصوت منخفض واضح : ان أمثالك من الرجال يازوجى العزيز لايمكن أن يكونوا ملكا لزوجاتهم ، وأطفالهم ، انهم ملك للعالم ، للتاريخ ، ولكن .. عدنى بشئ واحد ، واحد فقط ..

« ما هو ياعزيزتى اليزابيث ؟ » . . .

« هو أنك حين تعود من هذه الرحلة لا تتركنا ثانية » .

وأخذ جيمس كوك زوجته بين ذراعيه ، ونظر الى عينيها القلقتين : « انى أعدك » وأقسم فى صدق « ان السنين القادمة ستكون ملكا لك ، فالأكتشافات نتركها للشباب ولن تعود لى . . . حين أعود الى الوطن هذه المرة سأبتلع المرسى وأبقى على الشاطئ الى الأبد » .

فابتسمت له اليزابيث وقالت : « كى أذكرك بوعدك سوف أضع مصباحا مضاء فى النافذة كل ليلة حتى تعود » .

« منارة ، هه ؟ » وضحك معها الرجل وقال : « لقد تبعت منارة واحدة طيلة حياتى » .

* * *

واختيرت لرحلة الشمال الغربى سفينتان وهما « ريزوليوشن » و « ديسكافرى » . . . أما الأولى ، فكانت قد أثبتت صلابتها ، وأما

الثانية ، فقد بنيت فى نفس أحواض هويتى ، وعين لقيادة «ديسكافرى» الكابتن كليرك وهو ضابط قدير من الملازمين الذين رافقوا كوك فى احدى رحلاته السابقة .

وطلب الكثير من الضباط والرجال الذين كانوا فى الرحلتين الأولى والثانية ، أن ينضموا الى الرحلة الثالثة ٠٠٠ ها هو ذا دليل على عظمة قدر هذا القائد ، هذا اذا كانت هناك حاجة الى دليل ٠٠٠ واهتم لورد ساندويتش بمراعاة تجهيز هاتين السفينتين على أكمل وجه ٠٠٠ ولما كان جميع البحارة السابقين الذين طافوا حول العالم قد عادوا الى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح فقد أعطيت التعليمات لكوك بأن يعود الى انجلترا عن طريق خطوط العرض الشمالية العليا بين أمريكا وآسيا ، ويدخل فى المحيط الأطلنطى من المحيط الباسيفيكي عن طريق الممر الشمالى الغربى الذى يعتقد الجميع أنه لابد موجود .

وفى ١٢ من يوليو ١٧٧٦ أبحرت السفينتان « ريزوليوشن » و « ديسكافرى » من ميناء بلايموث بين رفرفة الاعلام وهتافات الجموع الحاشدة ٠٠٠ ووقف جيمس كوك على ظهر سفينته ، وفى موضع القيادة منها ، وأخذ يشخص ببصره نحو شاطيء انجلترا اذ هو يخفت ويختفى ، فبرغم السفينة الجميلة التى يقودها والبحارة المتأزمين والرحلة التى كان من شأنها أن تكمله بالمجد ، فقد كان الحزن يملأ قلبه ؛ فربما كان ذلك هو القدر الذى يحوم حول رأس الانسان ، والذى قد يقترب منه أحيانا حتى ليشعر بلمسات جناحه ؛ وطارت أفكار كوك الى زوجته وأولاده ، والى أبيه العجوز الذى ينام بجوار المدفأة فى جريت آيتون ٠٠٠ فمتى يراهم ثانية ، ويسمع أصواتهم ؟

ولما وصلت السفينتان الى رأس الرجاء الصالح فى ديسمبر أعيد تموينهما استعدادا للرحلة الطويلة فى مياه المحيط الباسيفيكي العليا . . . وفى هذه الأنحاء وجد كوك مجالات يعرفها ، ومر بجزر كان قد زارها من قبل . . . ولم يتعجل لأنه اذا كان هناك حقاً ممر شمالى غربى فان هذا الممر لن يزول بل سيظل هناك دائماً .

وظل كوك عاماً كاملاً يحوب الجزر ويضيف الكثير الى المعلومات العلمية التى يعرفها العالم ويؤسس الصداقة بين الانجليز والبولينيين .

ولما وصلت السفينتان الى « الجزر الودودة » لقيتا ترحيباً ملكياً . وكان كوك يترك فى كل جزيرة يصلها حيوانات ونباتات وحبوا وما يمكن أن يستغنى عنه من المعادن .

وفى ليلة عيد الميلاد Christmas بينما كان الملاح العظيم يبحر شمالاً اكتشف جزيرة مرجان ثبت أنها من أكبر الجزر ذات المستنقعات فى العالم ، وانهز فرصة كسوف الشمس وبدأ يقيس خط الطول الذى تقع عليه وجعل السفن تراقب الظاهرة .

كانت الأرض جرداء بشكل غريب ، خالية من النخيل والماء العذب . ولكن مستنقعها الذى تبلغ مساحته أربعين ميلاً كانت فيه جميع أشكال الحيوانات المائية سواء منها مايعوم وما يزحف ، وكانت الشواطئ مغطاة بملايين عديدة من طيور البحر التى لم تعتد منظر الانسان لدرجة أنها لم تبد أى دليل على الخوف ، وقد قتل البحارة عدداً كبيراً من كلاب البحر السمينة ، واكتشفوا وجود كومة حجارة مثبتة عليها زجاجة بسلك ، ووجدت فى الزجاجة قطعة جلد من الذى يستعمل فى الكتابة عليه ، وكتب فى هذه القطعة ان سفينة فرنسية

قد رست فى هذا الميناء قبل ذلك بأربعة أعوام فكتب كوك على ظهر الجلد سجلا لزيارته هو : سفينتا « ريزوليوشين » و « ديسكافرى » التابعتان لجلالة ملك بريطانيا ٠٠ « ديسمبر ١٧٧٧ » ثم وضع الجلد ثانية فى الزجاج وسدها برصاص ٠ ثم زاد من ارتفاع كومة الحجر كى تظهر من الخليج ، وأمر برفع علم بريطانيا ، وهكذا دخلت جزيرة « كريسماس » - عيد الميلاد - فى التاريخ ٠

وأبحرت السفينتان فى المحيط الباسيفيكي متجهتين شمالا ، وبدأ جيمس كوك يدخل مناطق يجهلها تماما ٠٠٠ فصادف فى طريقه ثمانى جزر جميلة من أخصب الجزر التى رآها فى حياته ٠ أطلق عليها توا اسم « جزر ساندويتش » تكريما لكبير لوردات البحرية (وستعرف هذه الجزر فيما بعد باسم جزر هاواى) ولم يمكث كوك فى هذه الجزر الجديدة طويلا لأنه كان يعرف أنه لابد أن يذهب الى ساحل أمريكا الشمالية فى جو الصيف، لهذا حمل السفينة بالحشب والماء ورحل عنها ، ولكنه وعد نفسه بأن يزورها زيارة أطول فى طريق عودته لأنه كان مقتنعا بأن جزر ساندويتش هى أهم الجزر التى اكتشفها فى الباسيفيك ٠

وفى مارس ١٧٧٨ شاهدوا الساحل الشمالى الغربى ، ورست السفينتان فى خليج أسماه كوك « خليج الملك جورج » ، وهو المعروف الآن باسم « مضيق نوتكا » وعلا المد ووصل الى مسافة طويلة على الشاطئ فوصل البحر بالأرض ، وكان الجو باردا ونقيا للغاية ٠ وسمع صوت شلالات وصيحات طيور غريبة ورائحة نفاذة لدخان متجدد ، وخدع البحارة بهذه الأرض الوحشية التى تختلف كثيرا عن جزر بحار الجنوب المليئة بالأشجار والنخيل ، واصطف الرجال والضباط خلف الحصون (وكان بين ضباط كوك شباب يدعى جورج فانكوفر سيلعب دورا هاما فى تاريخ هذا الساحل) ٠

وانطلقت أساطيل الزوارق مليئة بالهنود من الشاطئ ، وكان الذين يجدفون من المخلطين (البيض المتزوجين من الهنود) وهذه علامة طيبة . . . وصعد الرجال وحدهم الى ظهر السفن يحملون جلود الحيوانات للتجارة ، وصعدوا بخفة على السلاسل والحبال والسلالم متعلقين بأى شئ يمكن أن يمسكوه بأصابعهم وصعدوا كقطعان الجراد التى تهبط على واد خصب ، وامتلاً الجو بضجيجهم العالى المصطنع ، رجال فى غاية القدرة بشعور ملبدة بالدهن ، وأجسامهم مخططة برموز مرسومة ، وتحركوا بقاماتهم الطويلة النحيلة فى عنجبية طائشة ، وحاموا حول السفينة كالقروذ المتطفلة يتحسسون كل شئ . . . يسترعى انتباههم . . . ولم يطمئن رجال السفينة الى أن هؤلاء القوم كانوا غير مسلحين .

وقد قدم هؤلاء الهمج جلود الذئاب والدببة والسنائير وكلاب البحر للتجارة بها ، وكانوا لا يقبلون شيئاً بدلا منها الا النحاس . . . ويبدو أنهم كانوا قد ألفوا المعادن من التجار الذين توغلوا فى غاباتهم قبل ذلك ، وسرعان ماجردت السفينتان من النحاس حتى أزرار سترات الجنود . . . وأثبت الهنود أنهم لصوص أبرع من أهالى بحار الجنوب أنفسهم ، وكانوا غاية فى دقة الملاحظة لا يفوتهم شئ مهما صغر . أما ممتلكاتهم هم فقد كانوا يرعونها فى حرص يأخذون ثمنها باهظاً للماء والطعام ، وحتى العشب الذى يأخذه الانجليز لحيواناتهم ، وما أسرع ما كانوا يشعرون بما يسئ اليهم وينتقمون بسرعة مهما كانت الاساءة تافهة ، ولهذا اضطر رجال كوك أن يكونوا فى حذر مستمر .

وأخيرا اتجهت السفينتان نحو الشمال ، وانقضت الأشهر التالية فى مسح الساحل ، فرسمت الخرائط ، وقيست الأعماق ، وسميت الروس والخلجان ، وقد أخذ جيمس كوك يبحث عن الممر

الشمالي الغربي الرواغ ٠٠٠ وكان كلما رسا قابل قبائل جديدة من الهنود الهمج المخادعين الذين كانوا يتجرون بجلودهم وفرائهم مع الروس الذين فى الشمال •

ولما أبحرت ريزوليوشن و « ديسكافرى » أخيرا فى بوغاز بيرنج توغلنا فى مياه الخليج القطبى المتجمد ، وقبل أن تتوجها الى الجنوب ثانية كان كوك قد رسا على شواطئ آسيا وأمريكا المحيطة بالبوغاز ، ولما أشرف الصيف على الانتهاء فكر كوك فى أنه من المستحسن أن يغادر هذه المناطق المتجمدة بسرعة ، وقرر ، أن يقضى الشتاء فى جزر ساندويتش حيث يتمكن رجاله من أن يستعيدوا نشاطهم كما يتمكن هو من رسم الجزر رسما أدق ، واكمل •

وفى طريقه جنوبا سلك طريقا صعبا يسمى « يونا لاسكا » وهناك بينما كان البحارة يقومون باصلاح السفينتين تسلم هو وكابتن كليرك هدية غريبة لكل منهما سلمها لهما أحد الأهالى ، وتبين أنها فطيرة مصنوعة من الجويدار (نبات كالشعير) ومملوءة بالسلامون ٠٠٠ وكان مع الهدية خطاب لم يستطع أحد أن يقرأه •

وابدى كلارك احدى ملاحظاته قائلا : « اننى أعرف أن الهنود ليست لهم لغة مكتوبة ٠٠٠ ما رأيك فى هذا ياسيدى ؟ » .

فخمن الآخر قائلا : « لابد أن تكون روسية ٠٠٠ يقال ان هؤلاء الأهالى يتجرون مع جميع من فى هذه المنطقة » •

وكلف كوك جنديا بحريا شابا يدعى جون لديارد بالبحث عن مرسل هذه الهدية الغامض (وسيكون لهذا الشاب فيما بعد مغامرات خاصة) • وعاد لديارد بعد عدة أيام يصحبه ثلاثة من الروس هم

أول أوروبيين يراهم الانجليز منذ سنتين ، ورغم الصعوبات اللغوية فقد تبين أن هؤلاء الغربيين يشتركون فى تجارة الفراء مع أهل الشمال وأطلع أحدهم - ويدعى اسميلوف - كوك على خريطة لجزر الكوراييل ، وشبه جزيرة كامتشاتكا وكل ما اكتشفه الروسيون فى الشرق ٠٠٠ وأقيمت وليمة ضخمة ، وشرب الجميع نخب الصداقة .

ولما استأذن الزوار فى الرحيل أعطى كوك لأسميلوف رسالة للبحرية البريطانية وطوى معها خريطة لجميع الشواطئ الشمالية التى زارها وكان الروسى يأمل أن يتمكن من ارسال هذا الخطاب فى الربيع ، ووعده بذلك وبعد ذلك بسنة وصلت أنباء كوك القيمة الى لندن بعد أن تناقلتها الأيدى عبر سيبيريا .

* * *

وأبحرت السفينتان متجهتين نحو جزر سانديويتش تاركتين المناطق الشمالية خلفهما وبعد أيام (فى ٣٠ من نوفمبر ١٧٧٨) بدت فى الأفق أكبر جزر الهاواى ، بدت الجزيرة وكأنها حلم جميل فى أعين هؤلاء الرجال المتعطشين الى الشمس ٠٠٠ سفوح خضراء خصبة ، ترتفع طبقة فوق طبقة حتى تصل الى القمم التى تتلأل بجليد دائم لا يذوب ٠٠٠ ان هاواى هى أجمل جزر الباسيفيك على الإطلاق .

وعاقت الرياح المضادة السفن من الوصول الى الشاطئ معذرة بسحبهم بعيدا ولما سارت السفينة فى اصرار حول رأس هاواى الجنوبية تتبعها زميلتها الأخرى ، خرجت الى الماء أساطيل الزوارق مليئة بهدايا الطعام من خنازير وفاكهة وقصب السكر ، وبدا الأهالى المبتسمون الذين تكسوهم الأزهار وكأنهم برمائيون يعومون مسافات طويلة دون أن يبدو عليهم أى تعب .

وكان يوجد عن بعد خليج واسع تحيط بأحد جانبيه صخور
بركانية ، وأرسل ولیم بلاى مساعد قائد الاقلاع الى الشاطيء كى
يستطلع مكانا ترسو عنده السفينة (وبلاى هذا هو نفسه الذى
سيشهر به كقائد لاقلاع الباونتى) وأحسن بلاى القيام بعمله هذا ،
ورست السفينتان أمام شاطيء به أتربة بركانية وفى الشاطيء كانت
أشجار النخيل العالية تظلل البيوت المغطاة بالقش من وهج
الشمس .

وهنا حامت حول السفن مئات الزوارق مليئة بالرجال والنساء
الفرحين وتسلىق الأطفال ذوو البشرة البرنزية السلاسل والحبال ،
وأخذوا يتشقلبون على ظهور المراكب وكأنهم كلاب صغيرة تلعب .
كم يختلف هؤلاء القوم عن الهنود الثابتين الواثقين بأنفسهم الذين
هم فى الساحل الشمالى الغربى ! انك هنا لا تجد سوى الابتسامات
والهدايا والأغاني والتحيات السعيدة . ولم يحزن كثير من الانجليز
لعدم تمكنهم من اكتشاف الممر الشمالى الغربى ! ولكنهم لاقوا صعوبة
فى لفظ اسم هذا المكان الغريب : كىلاكوا .

واحتفل الملك (كالانيوبو أو) وكهنته بمقدمهم ، وكانت رؤوسهم
متوجة بألاف من الريش الصغير ، وزحفت العباءات الجميلة
المصنوعة من الريش الأحمر والأصفر من أكتافهم الى أرضية السفينة
علامة على العظمة الملكية . ان هؤلاء الهاوائيين أناس أنيقون طولهم
يزيد عن المتوسط ويشبهون التاهيتيين فى هيئتهم ولغتهم .

وتقدم كوا الكاهن الأكبر ورئيس وزراء الملك كى يخاطب
جيمس كوك لأنه يبدو أن هؤلاء القوم استطاعوا أن يميزوا القائد
الأعلى للانجليز ، وألقى كوا خطبة طويلة بلغة الأهالى لم يستطع
جيمس كوك أن يفهم منها كلمة واحدة ، ولسوء الحظ كان لهذه

الخطبة (لو استطاع كوك أن يحزر فحواها) علاقة كبيرة بالحوادث المؤسفة التي حدثت فيما بعد .

هذا ما قاله كوا : « يا أيها الرجل الأبيض لقد عاش في هذه الجزيرة في الأزمنة الغابرة اله يدعى « لونو » وفى نوبة من نوبات الغضب الشديد ذبح لونو زوجته وأطفاله ثم تملكه تأنيب الضمير لما قام به فهرب الى هاواى وصعد الى السماء . ومن هناك نادى أتباعه قائلا : يا شعبى ، سأعود اليكم يوما ما فى زورق عظيم ذى أجنحة بيضاء ، وسيعود كل شيء الى ما كان عليه من قبل » .

وهنا توقف كوا الكاهن الأكبر لحظة قبل أن ينهى خطبته الترحيبية . . . « يا أيها الرجل الأبيض ! ان زورقك قوى وله أجنحة كبيرة ، لقد عدت اليها . . . فأنت « لونو ! » وهنا ركع الهاوايى العجوز وخبط رأسه فى أرض السفينة ثلاث مرات ، وقد فعل الملك (كالانيوبو أو) وأتباعه نفس الشيء للكابتن الانجليزى ، حتى الأطفال الذين كانوا يلعبون سكتوا وحنوا رؤوسهم السوداء مقلدين كبارهم .

واحتار كوك وضباطه ، لأنهم لم يفهموا من خطاب كوا سوى كلمة « لونو » .

ولما لم يفهم كابتن كليرك شيئا تمتم لرئيسه يسأله : « قل لى بحق السماء ماذا كان هذا الرجل العجوز يقول ؟ »

فأجابه الآخر فى حيرة وارتيباك : « أنا تائه فى بحر من الحيرة . . . وهم يتصرفون وكأننا آلهة » .

وأجاب كليرك فى جفاء : « هذا دور صعب حتى على الرجل الانجليزى ، أرجو ألا يخيب بحارتنا آمالهم ... ترى ماذا يعنون بكلمة : « لونو ؟ » .

ولم يستطع جيمس كوك أن يتذكر أنه سمع هذه الكلمة يتداولها البولينيون .

وفى تلك اللحظة ألقى الكاهن الأكبر بحفاوة بأحد الثياب الجميلة المصنوعة من الريش ، وهذه علامة هاوائية تدل على منتهى الاحترام ، لأنه لا يرتدى عباءة الريش بين الهاوائيين الا أسماهم وأرفعهم شأنًا .

لقد اعتبر سكان جزر ساندويتش أن هذا الزورق الجبار ذا الأجنحة البيضاء وقائده ما هم الا تحقيق لأسطورة لونو .

ان هؤلاء الأغراب ليسوا آدميين بل هم آلهة خالدون ، لا يمكن أن يموتوا ولا يمكن أن يخطئوا .

وبعد أن انتهى الاحتفال رافق كوك الملك (كالانيوبو أو) الى الشاطئ فى وقار ، وهناك قاده الملك الى « الهيو » أو المكان المقدم وهو عبارة عن مذبح حجرى عال بنى خاصة لمراعاة جميع الطقوس الدينية ، وعلى أرضية الهيو تبادل الملك والكابتن البريطانى الأسماء ، وهو رمز للصدقة بين هؤلاء الجزريين .

بينما ردد الكهنة أنشودة لا تنقطع ، وضع (كالانيوبو أو) تاجه الريش فوق رأس الرجل الانجليزى وقدم كوك قبعته المحلاة بالذهب بدلا من التاج وربط حزامه وسيفه حول وسط الملك ، وهكذا اكتمل الترحيب بلونو ... وأصبح جيمس كوك من البقيديسين ، دون أن

يدرى ٠٠٠ وتدفقت الهدايا على السفينة : خنازير ، فواكه ، جوز هند ، موز وحزم من الأقمشة الوطنية مصنوعة من اللحاء الداخلى لشجر التوت وامتلات السفن بهذه الأشياء التى أعطاهها الوطنيون لهم دون مقابل ، ولم يستطع أحد أن يفهم معنى هذا الكرم الزائد الذى لم يحدث مثله فى أى جزء من أجزاء الباسيفيك .

ولكن جيمس كوك كان متلهفا على القيام بمسح شواطئ الجزيرة ٠٠ وأخيرا ضجر من حفاوة الأهالى ، لأنه لم يرد أن يعامل معاملة الآلهة ٠٠٠ وفى اليوم التالى عملت الاستعدادات لبناء مرصد للأجهزة البحرية على الشاطئ ٠٠٠ واختار كوا ، الكاهن الأكبر ، مكانا مناسباً وأسماء « الحرم » أو المكان المقدس ٠٠٠ واقتربت السفن من الشاطئ كى تحمى المعسكر بمدافعها لأنه رغم كل هذه الحفاوة كان كوك يعتبر أنه من الحمق أن يظلوا دون حراسة .

* * *

ومرت الأسابيع سراعاً وانقضى عام ١٧٧٨ دون أن يحقق الملاح العظيم ما كان يبتغيه .

وفجأة وقع حادث سيئ ، اذ مات مساعد رجل المدفعية وحمل جسده الى الشاطئ لدفنه ، فصعق الهاوائيون ، كيف يمكن لهذا الشخص الخالد خادم الاله أن يموت ؟

ودوى الشك فى الهاوائين دوى الرعد البعيد ، وبدأوا يتساءلون : هذه السفينة الجبارة ذات الأجنحة البيضاء - أهى حقاً الزوزق المجنح الذى وعد لونو أن يعود به ؟ وذلك الرئيس الأبيض العظيم نفسه - أهو مزور ؟ وانتشر الشك بينهم انتشار النار فى الهشيم ، تزيده ريح الريبة ، وأخبر الملك (كالانيوبو أو) شعبه أنهم

خدعوا وأن الأغراب البيض قد قبلوا هداياهم عن غير حق ، وأنهم ليسوا آلهة ، بل هم آدميون يمكن أن يموتوا تماما كما مات ذلك الرجل الذى دفن لتوه فى أرضهم .

وهكذا زاد الشعور يوما بعد يوم ، ولم تعد الهدايا تتدفق على السفينة وكان البحارة وهم يملأون براميل الماء التى على الشاطئ يحييهم وابل من الحجارة وبدأت السرقات وكان أقدر بحاريهم وأمهرهم يأتون الى السفن ليلا ليسرقوا منها حتى مساميرها ولم تسفر احتجاجات كوك عن أية نتيجة ، لأنه بدا أن الملك نفسه كان يشجع اللصوص .

واعتبر كوك أن هذه هزيمة شخصية باعتباره قائدا للبعثة وكان قد أظهر منذ بداية الرحلة أن له دراية طبيعية بالشعوب البدائية ، فكانوا يأتون اليه كالأطفال الصغار واثقين به ثقة غريزية طبيعية وأعجب كوك بالهاوائيين أيما اعجاب وفضلهم على غيرهم أما الآن فقد انتابه شعور بالفشل ، فشل فى قدرته على فهم الناس وتفهم طبيعتهم ومرت به لحظة نسي فيها أنه لم يوجد على ظهر الأرض من جاب البحار أكثر مما جاب أو ترك سجلا أروع مما ترك هو ، حقا أنه لم يعثر على الممر الشمالى الغربى ، ولكنه اكتشف هذه الجزر الحصبة أروع جزر الباسيفيك ، لولا أن ارتاب فيه السكان . . وفجأة فى ساعة الهزيمة هذه ، شعر بلهفة كبيرة ملحة الى رؤية تلال الوطن الحضراء واليزابيث .

وسمع صوت رئيس النوتية الاسكتلندى يجلجل بين السفينتين وهو يقول : « يالها من أرض جميلة ، هاواى هذه ! ولكنها ليست اسكتلندا ، . . . اننى أحب هاواى كثيرا ، ولكننى متشوق الى نباتات اسكتلندا وغزلانها » .

فأجابه صوت آخر مؤيدا : « آه انها ليست اسكتلندا » .

وتتمم رئيس النوتية قائلا : « انى أتساءل أحيانا هل ستتاح لى الفرصة أن أرى شجر القنسدول ثانية وأسمع المزامير تسرى فى عروقى مع عزف «لوش لوموند» وأمتع نظرى بحقول البرسيم الجميلة فى شهر يونية » .

• ووجدت هذه الأصوات لها صدى فى قلب جيمس كوك .

وفاضت به كأس المرارة حين أرسل الملك (كالانيوبو أو) رسولا الى السفينة كى يعرف موعد رحيل الأغراب ، لأن كميات الأكل الهائلة التى ترسل الى الرجال البيض قد تسبب مجاعة للهاوائيين .

واستقر رأى كوك بسرعة على أن الوقت قد حان للرحيل ومرت الكلمة فى السفينتين سريعا ، وفكوا المرصد ، ووقف الأهالى صامتين مكتئبين يراقبون الاستعداد للرحيل ، ولم يظهروا أسفهم ولم يودعوهم ، وكان الهاوائيين يراقبون وباء يأخذ مجراه .

وفى ٤ من فبراير كان كل شيء معدا ورفعت المراسى ونشرت الأشرع واصطف آلاف الأهالى على الشواطىء يراقبون « رحيل السفينتين » وشعر جميع من على ظهريهما بارتياح كبير حين تساقطت صخور الالفا التى فى كياالاككوا بسرعة .

ثم حدث ما لم يكن فى الحسبان ؛ فقد حاصرت السفينتين عاصفة ، استوائية ، عنيفة للغاية وعصفت بهما ، ولما انخلع شرع اليريزوليوشن الأمامى ، لم يتمكنوا من مواصلة الرحلة قبل أن يصنعوا لها قلعا جديدا ، وكان أقرب مكان لهم هو كياالاككوا .

وقوبلت السفينتان العائدتان بتحية من العداء الظاهر ولما نزل أحد الضباط الى الشاطيء ليبحث عن خشب مناسب قابله الأهالي بموجة من الاساءات وهجوم رجاله بالصخور والرماح ، ولم يحافظ على نفسه حتى عاد الى السفينة بصعوبة ٠٠٠ ولكن ما خفى كان أعظم ، ففي تلك الليلة ظهرت أضواء خفيفة على الشاطيء وعند الفجر تبين أن قاطع السفينة « ديسكافرى » قد سرق بمهارة دون أن يشعر أحد من الحراس .

ها هي ذى الحرب يشنونها علانية ، ولكن صخور كيالاككوا السوداء الساكنة كانت تشرف على قرية بدت وكأنها مهجورة وساد السفينتين سكوت تام شامل ، وتحرك البحارة فى هدوء وصمت وكأنهم يخشون أن يخرقوا هذا السكون ، وكان وقوع كرة قدم ، أو سماع صوت عال سيكون اعتداء مذهلا وزاد الشعور الملل بانتظار الانفجار شيئا فشيئا حتى بدأت الطبول تدق بعيدا فى التلال البركانية ٠٠٠ كان صوتها منخفضا فى بادئ الأمر ثم بدأ يعلو ٠٠٠ وعلو ٠٠٠ حتى بدت الغابة تتكلم ، والأرض تجيب ، والسماء تحبس أنفاسها لكي تسمع .

وقرر جيمس كوك أن يستعيد القاطع ، أحسن زوارقه الصغيرة ، مهما كان الثمن ولما كان من الواجب اتخاذ تدابير حاسمة ، فقد صمم على أن ينزل الى الشاطيء ويواجه الملك بنفسه وأن يأخذ (كالانيونو أو) رهينة حتى يستعيد القاطع / لو اضطر الى ذلك ، وقبل أن يترك « إلريزوليوشن » أصدر أوامره بوقف أى زورق يحاول أن يهرب من الخليج .

وخارج كوك يرافقه تسعة جنود متجهين الى البحارة تحت قيادة الملازم فيليبس فى زورق مدرع وكان يحمل معه بندقية ذات ماسورتين ،



وطلب كوك من المواطن ان يلتقى برمحه

وفكر كوك بأسى أن هذا منتهى هزيمته لأنه مضطر الى أن يواجه هؤلاء القوم الذين يحبهم وفى يده بندقية •

ولما اتجه القارب نحو الشاطيء شاهدوا آلاف الأهالى متجمعين ، مسلحين بالرماح « والباهوات » ، وهى هراوات حجرية ثقيلة ، وكان أغلب المحاربين يحتمون بدروع الصفصاف ٠٠٠ وسكنت هذه المجموعة الضخمة الهائلة سكوتا رهيبا ، وتقدم الملك (كالانيوبو أو) الصفوف ووقف على الشاطيء متحديا •

ولما اقترب القارب المدرع من الشاطيء سمعت أصوات مجموعة من الطلقات ؛ اذ أطلقت الزوارق التى تحاصر الخليج النار على زوارق تحاول الفرار ٠٠٠ وسرت فى الجموع صيحات الغضب ، وفر الملك ، ولم يعرف ان كان قد فر هربا أو حرصا •

وقفز كوك الى الماء الضحل ، واستند البحارة الذين يحمونه من الخلف على المجاديف ، كما تعلق فيليبس بذراع الدفة ٠٠٠ وهنا تقدم أحد الهاوائين - وكان أشجع من رفاقه - تقدم ليوافى الكابتن ، وطلب كوك بهدوء من المواطن أن يلقي برمحه ولكن الرجل أطاح بذراعه الى الخلف معتزما أن يقتل ، فرفع كوك بندقيته وأطلق النار على المواطن ، ولكن الرصاصة لم تخترق الدرع الواقية . ولما لم يصب الهاوائى صاح بتحد وسحب رمحه مرة ثانية ، ولكن طلقة كوك الثانية قتلتة فى الحال •

وهنا تحطمت بؤرة الشر وانطلقت ، وتقدمت الجموع تصيح وتولول ، ورنّت أصوات الرماح فى الهواء وأطلق الجنود البحارة دفعة من الطلقات فغاص المحاربون فى النهر وسحبوا أربعة بحارة من القارب المدرع بينما حاربهم الباقون بالمجاديف وأصيب فيليبس بضربة من « الباهوا » بين كتفيه ، ولكنّه أسقط مهاجمه بعقب

بندقيته ، وأطلق الجنود البحارة الآخرون دفعة ثانية مشتتة من الطلقات ولم تفعل أكثر مما تفعله مجموعة من الحصى .

وفى هذه الأثناء كان كوك قد وصل الى حافة الشاطئ وواجه وحده هذه الآلاف الثلاثة من الهمج الثائرين وكان لا يزال يحتفظ بشيء من مجده القديم ، شيء من حرمة لأن الهائيين ترددوا فى مهاجمة هذا الزعيم الذى واجههم بنظرته الجريئة ودوت دفعة أخرى من الطلقات فأصابت مجموعة من المحاربين واستدار كوك وصاح لفيليبس يأمره بالكف عن اطلاق النار .

وكان هذا العمل الكريم قاتلا ؛ اذ زحف أحد المحاربين من الخلف وألقى بنفسه على الكابتن وضربه ضربة قوية « بالباهوا » ، فترنح جيمس كوك ، وألقى بذراعيه الى أعلى وغاص بوجهه فى الماء ، فضربوه « بالباهوا » ضربة ثانية وثالثة ورابعة ...

فرقد كابتن كوك العظيم - الصبى الذى كان يحلم بالبحر - رقد حيث سقط فاقد الحس والأمواج ترتطم بجثته الهامدة .

* * *

وعلى بعد عشرة أميال من الشاطئ كانت توجد سفينتان تطفوان فوق الماء ونزلت عليهما بقضبانهما وقلاعهما الصلبة مظاهر الحزن والكآبة ونكست الرايات فى منتصف الصواري ، وأخذت السفينتان تصنعدان وتهبطان مع أمواج البحر الطويلة السقيمة ، ودقت الأجراس بينما تجمع الرجال أمام سور ريزوليوشن ووقفوا مطأئين رؤوسهم ممسكين بقبعاتهم ، والسماء ملبدة بالغيوم تنخفض وكأنها تنحنى اجلالا لموت هذا الرجل العظيم ، وهطل المطر ، وبدت

صخور هاواى مظلمة تطل على البحر وخفق قميص كابتن كليرك
لهبات الريح فى حين تاللات حبات المطر على خده .

وانفتح باب سلم الهبوط ، واندلع منه أربعة من البحارة
يحملون فيما بينهم حزمة ملفوفة بالحيش مربوطة بالقنب ومغطاة بعلم
بريطانى باهت وتقدموا بخطى بطيئة نحو سور السفينة ، وفتح
كابتن كليرك الأنجيل وعلا صوته الحشن فوق أزيز الريح وهو
يرتل : «

» فى بيت الهى قصور عديدة .. لو لم يكن كذلك لأخبرتكم
..... »

وتقاربت أيدي البحارة أكثر وكأنها تبحث عن الدفء والثقة
من زميلاتهما ، وحاول بعض الرجال أن يخفوا عواطفهم ، ووقف البعض
الآخر برءوسهم عالية ، والدموع تنزلق فى تجاعيد خدودهم برجولة
ويدون خجل ، أما البحارة الأربعة فقد ثبتوا شحنة الحيش فوق
السور وكأنما قلوبهم لا تطاوعهم لأداء عملهم هذا ؛ ونحوا العلم
البريطانى ، وتحشرج صوت كابتن كليرك وكأنه يختنق ... وهو
يقول « ولهذا فانا نرسل هذا الجسد الى الأعماق كى يتحلل ويتعفن
وينتظر يوم البعث يوم أن يسلم البحر موتاه ، وتعود الحياة
الثانية » .

وبح صوته وهو يصيح : « وداعا يا جيمس كوك وليباركك
المولى ! »

* * *

ومر أكثر من سنة قبل أن يصل النبأ الى انجلترا ، فنزل الخبر
منهم نزول الصاعقة للخسارة الفادحة التى حلت بالأمة ، وقيل ان

الملك لم يستطع أن يجبس دمه وهـو يأمر باعطاء معاش قدره مائتا جنيه لأسرة الملاح العظيم ، وأقر العالم أجمع أن جيمس كوك قد زود الملاحـة بخرائط فى غاية الدقة ٠٠٠ أما ما قدمه للفلك والتاريخ الطبيعى فهو شىء لا يعد ولا يحصى ٠٠٠ وكان مثال القائد الحق يتحكم فى نفسه كما يتحكم فى الآخرين ٠٠٠

حقا لقد اختفى رجل من أعظم الرجال الانجليز ٠٠٠

* * *

وظل المارة فى طريق « مايل اند » عدة سنين يرون فى نافذة البيت الحجرى الصغير ضوءا ثابتا يضىء من الغسق حتى بزوغ الفجر وكأنه فنار ينير الطريق لمن أراد أن يسير فى طريق المجد •

صدر من هذه السلسلة

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| ١ - سيمون بوليفار | ترجمة أحمد قاسم جودة |
| ٢ - قاهرو الحمى الصفراء | ترجمة الدكتور كمال سعيد |
| ٣ - جنكيز خان | ترجمة متري أمين |
| ٤ - ليوناردو دافينشي | ترجمة سامي ناشد |
| ٥ - كريستوفر كولمبس | ترجمة رجائي نجيب مقار |
| ٦ - الاسكندر الأكبر | ترجمة فاروق القاضي |
| ٧ - غاريبالدي | ترجمة على أدهم |

مؤسسة طباعة الألوان المتحدة
٨ شارع المرحومى - مصر القديمة القاهرة

هَذَا الْكِتَابُ

بقلم

حسن جلال العروسي

يحكى هذا الكتاب قصة جيمس كوك الملاح الحالد الذي لم يكن قد رأى البحر أبان طفولته • ولكن حبه الفطرى له كان يجرى فى عروقه فصمم أن يعيش بين أمواجه يشاركه فى هدوئه وأهواله •

فهاهى ذى السفينة الانجليزية « انديفور » تقل بعثة الجمعية الملكية لمراقبة كسوف الشمس فى سنة ١٧٦٩ يرأسها رجل من أشهر الرجال الذين أبحروا تحت لواء العلم الانجليزى ، ذلكم هو جيمس كوك ، الذى علم نفسه بنفسه وهو ابن ائنتى عشرة سنة بأن عكف على دراسة أمور الملاحة من الخرائط والكتب وغير ذلك من المصادر حتى صار قطبا من أقطابها ، وعلمنا من أعلام رسم الخرائط ومراقبة الظواهر العلمية •

ان مؤلف هذا الكتاب يقص علينا أخبار رحلات جيمس كوك والاستكشافات العظيمة والأعمال المجيدة التى قام بها • وهى قصة تخلب الأبواب وتفيض بمواقف الشجاعة والاقدام • ولا شك أن رحلات كوك كان لها الفضل أكبر الفضل فى تعريف الناس بالدائرة القطبية ، فهو أول من ارتادها ، كما كان لها الفضل فى الكشف عن الشعب المرجانية وعن جزر لا حصر لها فى جنوب المحيط الهادى

Bibliotheca Alexandrina



0726439



سنة ١٩٦٣

الثلث ٢٠ قرشا